إصلاح مناهج التعليم عند الطاهر بن عاشور "ت 1973هـ"
من خلال كتابه أليس الصبح بقريب

الباحث عبد الفتاح الزاوي
طالب باحث
جامعة عبد الملك السعدي مارتيل
المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين وعلى كل من اهتدى بهديه وتمسك بدعوته إلى يوم الدين ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٧﴾ سورة طه 27

وبعد: فلا أحد ينكر أن التعلم أمر جوهري للوجود الإنساني وأساسي للتربية وهو منطلق أساسي لدراسة علم النفس ولازم لفهم حقيقة العقل البشري؛ فبواسطته يكتسب الإنسان مجمل خبراته الفردية وعن طريقه ينمو ويتقدم؛ ولهذا تمثل العملية التعلمية التعليمية جانبا هاما في حياة كل فرد ومجتمع، ولكيلا تترك هذه العملية التعليمية محكومة بالفردانية والعشوائية، انكب الباحثون والعلماء على تبيان المناهج الكفيلة بإصلاحها. وأصبحوا بين الفينة والأخرى يتحدثون عن مناهج إصلاح التعليم.

ومن المعلوم أن الاهتمام بالعلم والتعلم أمر قد تحدث عنه السلف وناقشه الخلف وما يزال إلى يومنا هذا، فلا شك أن الجميع متفق على فضل وأهمية التعليم، وإنما الخلاف في المنهج الذي ينبغي اتخاذه في التعليم؛ لأن مسألة المنهج مسألة في غاية الأهمية، فنكاد نجزم ونقول بأن مشكلة الأمة اليوم هي مشكلة منهج.

وإن وعي أي أمة واعتزازها بتراثها يجعل من واجبها التنويه بأعلامها المبرزين الذين أسهموا في عطائها الحضاري وإنجازها العلمي، ومن هذا المنطلق فسنكشف النقاب عن أحد أبرز المصلحين في المجال التعليمي، إنه الشيخ الطاهر بن عاشور وكتابه: "أليس الصبح بقريب التعليم العربي الإسلامي دراسة تاريخية وآراء إصلاحية"

وبناء على ما تقدم تنتصب أمام الدارس مجموعة من التساؤلات: ماذا نقصد بالمنهج وما مفهوم الإصلاح والتعليم، وماذا نعني بمناهج التعليم؟ ومن هو الطاهر بن عاشور؟ وإلى أي حد يمثل كتابه هذا نظرته الإصلاحية في المجال التعليمي؟ وما هو المنهج الذي يراه الشيخ الطاهر بن عاشور كفيلا بإصلاح التعليم؟ وهل الخلل في النظام أم في المعلم أم في المقرر الدراسي؟ وهل للأسباب التي أدت إلى تأخر الأمة دخل في تأخر التعليم؟

هذه الأسئلة وغيرها حاولت التطرق إليها والإجابة عليها من خلال هذا البحث المعنون ب:"إصلاح مناهج التعليم عند الطاهر بن عاشور من خلال كتابه أليس الصبح بقريب..." قلت سأحاول الإجابة عن تلك الأسئلة من خلال هذا العمل البشري الموسوم بالنقص، مستحضرا في ذلك قول الإمام حاجي خليفة: "ثم إن التأليف على سبعة أقسام لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها وهي: إما شيء لم يُسبق إليه فيخترعه، أو شيء ناقص يتممه، أو شيء مغلق يشرحه، أو شيء طويل يختصره، أو شيء متفرق يجمعه، أو شيء مختلط يرتبه أو شيء أخطأ فيه مصنفه فيصلحه"[1] فبحمد الله تعالى قد حاولت أن أختصر وأوضح رؤية الطاهر بن عاشور الإصلاحية لمنظومة التعليم معتمدا في ذلك على كتابه "أليس الصبح بقريب..."

أهمية الموضوع: ولهذا الموضوع أهمية يمكن إرجاعها إلى نقطتين أساسيتين **أولا**: أمور ترجع إلى ارتباط الموضوع بالتعليم ومناهجه: يرمي هذا البحث إلى جمع جهود العلامة الطاهر بن عاشور في بيان الرؤيا الإصلاحية لمناهج التعليم من خلال كتابه الموسوم ب" أليس الصبح بقريب...

كما أن التعليم هو الركيزة الأساسية للنهوض بهذه الأمة، وبه تعود إلى حالتها الطبيعية؛ أمة الوسط.

ثانيا: أمور ترجع إلى ارتباط البحث بشخصية الطاهر بن عاشور: فالشيخ الطاهر بن عاشور كان مولوعا ومهتما بإصلاح مناهج التعليم؛ بل إنه كان يعتبره هما وكان يفكر في ذلك مذ كان طالبا في جامع الزيتون .كما صرح بذلك في مقدمة كتابه أليس الصبح بقريب .

ضف إلى ذلك أنه خص كتابا كاملا في هذا المجال وناقش فيه أسباب تأخر التعليم وسبل إصلاحه.

أسباب اختيار البحث: يمكن أن نميز في الأسباب بين أسباب ذاتية وأخرى موضوعية: **أسباب ذاتية**: * رغبتي في الوقوف على الرؤيا الإصلاحية لمناهج التعليم عند الطاهر بن عاشور* رغبتي الشديدة في الاحتكاك بموضوع يكون مرتبطا بعلوم التربية. **أسباب موضوعية**: ويمكن تلخيصها في النقاط التالية: * أثناء المحاضرات والمؤتمرات وجدت من مشايخي من يشجع ويشحذ الهمم للبحث في هذا الموضوع إصلاح مناهج التعليم. * أن المرء إذا اشتغل في موضوع إصلاح المناهج الدراسية، فسيكون على بصيرة أثناء مزاولته لمهنة التدريس. وربما تخطى مجموعة من الأخطاء والصعاب التي قد تعترض مساره المهني. * أن الطاهر بن عاشور كان يحس بضرورة إصلاح المناهج التي تدرس بها العلوم وقتئذ، وقد وضع مجموعة من الخطوات الإصلاحية يمكن الاستفادة منها اليوم بشكل أو بآخر؛ لأنه قبل أن يتحدث عن الإصلاح شخص الداء؛ فبحث عن أسباب تأخر التعليم جملة وتفصيلا، ثم بعد ذلك شرع في ذكر المنهج الكفيل للإصلاح.

هذه جملة من الأسباب التي دفعتني إلى اختيار "إصلاح مناهج التعليم عند الطاهر بن عاشور من خلال كتابه:" أليس الصبح بقريب..."موضوعا للبحث، وأرجوا أن تكون أسبابا مقنعة للتدليل على سلامة الاختيار.

منهج البحث: أما عن المنهج المتبع في انجاز هذا البحث فقد اتبعت منهجين اثنين؛ المنهج الوصفي والتحليلي، أحدهما يكمل الآخر؛ . وإن كان المنهج الأول هو الغالب على البحث:

المنهج الوصفي: وهو عملية تُقدَّم بها المادة العلمية كما هي في الواقع، إنه عمل تقريري، يعرض موضوع البحث عرضا إخباريا بلا تعليل أو تفسير ... فالمنهج الوصفي إذا يقوم على استقراء المواد العلمية التي تخدم إشكالا ما[2] وهذا المنهج هو الغالب على هذا البحث؛ إذ جمعت الرؤيا الإصلاحية لمناهج التعليم عند الطاهر بن عاشور.

المنهج التحليلي: وهذا المنهج يقوم على دراسة الإشكالات العلمية المختلفة، تفكيكا أو تركيبا، أو تقويما...فإذا كان الإشكال عناصر مشتتة، فإن المنهج يقوم بدراسة طبيعتها ووظائفها، ليركب منها نظرية ما، أو أصولا ما، أو قواعد معينة[3] فالإشكال الذي يجيب عنه هذا البحث هو الوقوف على المنهج الإصلاحي عند الطاهر بن عاشور.

خطة البحث: وتكونت خطة البحث التي سرت عليها من مقدمة وثلاثة فصول، وخاتمة ولائحة للمصادر والمراجع؛ أما المقدمة فقد خصصت لما نحن فيه، وأما الفصل الأول فقد كان بعنوان "دراسة في مفاهيم العنوان، والتعريف بالمؤلِّف والمؤلَّف" وقد جاء في مبحثين، المبحث الأول عنونته ب: دراسة في مفاهيم العنوان: (الإصلاح، المناهج، التعليم). وأما عن المبحث الثاني فقد عرفت فيه بالمؤلف والمؤلف. وقد انتظم في مطلبين مطلب عرفت فيه بالشيخ الطاهر بن عاشور وركزت فيه على الجانب التعليمي في شخصيته، وأما المطلب الثاني فقد كان للتعريف بكتاب أليس الصبح بقريب. وركزت فيه على تلك الجوانب المعتمدة في دراسة الكتب خارجًا عن مضمونها؛ مِن قبيل: الكاتب، وعنوانه، والتحقيق، ودار النشر، والطبعات، ومنهج الكتاب من خلال تقسيم أبوابه وفصوله... أما ما يتعلق بالجانب الداخلي فقد تركته في فصل مستقل. فكان هذا تمام الفصل الأول، وأنت ترى أننا انتقلنا فيه

. بتدرج . من العام إلى الخاص. أما الفصل الثاني فقد كان بعنوان:" تلخيص موجز لكتاب: "أليس الصبح بقريب..." وأما الفصل الثالث والأخير فقد عنونته ب: "التعليم العربي: أسباب تأخره ومناهج إصلاحه عند الشيخ الطاهر بن عاشور". ولهذا فقد جاء هذا الفصل في ثلاثة مباحث: المبحث الأول: أسباب تأخر التعليم التي تعود إلى فساد النظام، ومناهج إصلاحها عند الطاهر بن عاشور. وأما المبحث الثاني فقد خصصته للحديث عن أسباب تأخر التعليم التي تعود إلى فساد التآليف ومناهج إصلاحها عند الطاهر بن عاشور. وأما المبحث الأخير من هذا الفصل فقد عنونته بأسباب تأخر التعليم التي تعود إلى فساد المعلمين ومناهج إصلاحها عند الطاهر بن عاشور. وأما **الخاتمة** فقد ذكرت فيها جملة من النتائج التي توصلت إليها؛ ثم ختمت البحث بلائحة لأهم المصادر والمراجع المعتمدة.

وإني لا أدعي أني وصلت بهذا البحث إلى درجة الكمال، ولكن حسبي أني اجتهدت، فإن وفقت فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وإن كان غير ذلك، فهذا من طبيعة البشر.

الفصل الأول: دراسة في مفاهيم العنوان والتعريف بالمؤلِّف والمؤلَّف:

تعد مسألة ضبط المفاهيم مسألة في غاية الأهمية؛ إذ الناظر في معظم الخلافات التي تكون بين المسلمين يجد أن منشأها – في الغالب– عدم تحديد المفاهيم وبيان مدلولاتها بدقة ووضوح؛ قال الدكتور القرضاوي: " وكثيرا ما يشتد الخلاف بين فريقين، ويثور العجاج بينهما، ثم يتبين في النهاية أن الخلاف كان لفظيا، وأن لا ثمرة عملية تجنى من ورائه "[4] ثم قال في موضع آخر: " إن تحديد المفاهيم، وتوضيح المصطلحات، وإزالة الغبش واللبس عنها، يُقرِّب المسافة بين المختلفين، وقد يزيل الخلاف من أساسه إذا صدقت النية."[5] وقال ابن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي : "إن حدود الأشياء وتفسيرها الذي يوضحها، تتقدم أحكامها، فإن الحكم على الأشياء فرع عن تصورها. فمن حكم على أمر من الأمور – قبل أن يحيط علمه بتفسيره، ويتصوره تصورا يميزه عن غيره – أخطأ خطأً فاحشا."[6] ولذا" فإن الاهتمام بالمصطلح أمر ضروري يفرضه واقع البحث العلمي لاسيما وأن أي بحث لا ينطلق من تحديد موضوعه، ولا يحدد مفاهيمه ويضبط مصطلحاته ويعمل على محاصرة القضايا والإشكالات والتصورات بالمصطلح تنتفي عنه الدقة الموضوعية والعلمية ويسقط في العشوائية".[7]

ومن هذا المنطلق لابد من تعريف مصطلحات العنوان؛ فما المقصود بالإصلاح، وماذا نعني بالمناهج، وما هو التعليم، ومن هو ابن عاشور؟

المبحث الأول: دراسة في مفاهيم العنوان:(الإصلاح، المناهج، التعليم)

المطلب الأول: تعريف الإصلاح لغة واصطلاحا

1/ الإصلاح في اللغة: قال الخليل:(ت170هـ). رحمه الله .:"صلح: الصلاح: نقيض الطلاح. ورجل صالح في نفسه ومصلح في أعماله وأموره. والصلح: تصالح القوم بينهم."[8] وقال ابن دريد(ت321هـ) . رحمه الله .: "وَالصَّلَاح: ضد الطلاح"[9] ويقول ابن منظور (ت:711هـ) . رحمه الله .:"صلح: الصلاح: ضد الفساد؛ صلح يصلح ويصلح صلاحا وصلوحا... والإصلاح: نقيض الإفساد... والاستصلاح: نقيض الاستفساد. وأصلح الشيء بعد فساده: أقامه. وأصلح الدابة: أحسن إليها فصلحت."[10] يمكن أن نستنتج مما سبق أن: كل من الخليل وابن دريد وابن منظور عرفوا الصلاح بالضد؛ وهذا نوع من أنواع التعريف؛ إذ هناك تعريف بالمثال وبالمرادف وبالمقارنة وبالحد وبالثمرة ...إلخ. كما أن الإصلاح إما أن تصلح أمرا فاسدا من أصله، أو أن تصلح أمرا كان صالحا وتم إفساده بمرور الأيام. كما يتضح من خلال تعريف ابن منظور أن الإصلاح يكون بعد الإفساد؛ ويستنتج هذا من قوله (وأصلح الشيء بعد فساده)

2/الإصلاح في الاصطلاح: قال الطاهر بن عاشور(ت1973م) . رحمه الله .:"الإصلاح ضد الإفساد، أي جعل الشيء صالحا، والصلاح ضد الفساد يقال صلح بعد أن كان فاسدا)[11]

يتضح مما سبق أن المعاجم اللغوية والاصطلاحية في تعريفها للإصلاح تربطه بضده ـ الإفساد ـ وهذا يتطلب منا أن نعرف معنى الإفساد، قال الإمام الطاهر بن عشور ـ رحمه الله: "والإفساد: فعل ما به الفساد، والهمزة فيه للجعل أي جعل الأشياء فاسدة في الأرض. والفساد أصله استحالة منفعة الشيء النافع إلى مضر به أو بغيره، وقد يطلق على وجود الشيء مشتملا على مضرة، وإن لم يكن فيه نفع من قبل يقال: فسد الشيء بعد أن كان صالحا، ويقال: فاسد إذا وجد فاسدا من أول وهلة، وكذلك يقال: أفسد إذا عمد إلى شيء صالح فأزال صلاحه، ويقال: أفسد إذا أوجد فسادا من أول الأمر."[12]

وعليه إذن فيمكن أن نقول بأن الإصلاح الوارد في العنوان هو إصلاح الأمور التي هي موجودة في التعليم لكنها لم تعد صالحة، وإصلاح أمور كانت منذ البداية فاسدة في المجال التعليمي، والسعي إلى تغييرها للأحسن.

المطلب الثاني: تعريف المنهج في اللغة والاصطلاح

المناهج في اللغة: المناهج جمع منهج، قال ابن دريد(ت321هـ) ـ رحمه الله ـ "نهج والنهج: الطَّرِيق الْوَاضِح وَالْجمع نهوج ونهاج وَهُوَ الْمنْهَج وَالْجمع مناهج."[13] وقال ابن فارس(ت395هـ) ـ رحمه الله ـ:"(نهج) النون والهاء والجيم أصلان متباينان: الأول النهج، الطريق. ونهج لي الأمر: أوضحه. وهو مستقيم المنهاج. والمنهج: الطريق أيضا، والجمع المناهج. والآخر الانقطاع. وأتانا فلان ينهج، إذا أتى مبهورا منقطع النفس. وضربت فلانا حتى أنهج، أي سقط."[14] إذن فالمنهج في اللغة يراد به الطريقة التي يتوسل بها للوصول إلى الهدف المنشود.

المنهج في الاصطلاح: إن المنهج الوارد في العنوان والذي نود البحث عنه في هذا البحث يراد به مفهومان ـ كما ذكر صاحب كتاب علم مناهج التربية الدكتور فؤاد محمد موسى ـ قال: "إن القارئ في مجال المناهج يستطيع أن يلمس بوضوح من خلال استعراضه لما كتب عن مفهوم المنهج أن هناك تأرجحا بين مفهومين للمنهج:

الأول: يطلق عليه المفهوم القديم أو التقليدي...والذي يشير إلى أن المنهج عبارة عن المواد الدراسية أو المقررات أو المعلومات والحقائق والمفاهيم التي تعمل المدرسة على إكسابها للتلاميذ....

الثاني: يطلق عليه المفهوم الواسع أو الحديث ...والذي يشير أن المنهج هو مجموع الخبرات التربوية التي تهيؤها المدرسة للتلاميذ بقصد مساعدتهم على النمو الشامل أي النمو في جميع الجوانب؛ العقلية والثقافية والاجتماعية والجسمية والنفسية والفنية، نموا يؤدي إلى تعديل سلوكهم ويعمل على تحقيق الأهداف التربوية المنشودة "[15] وهناك تعاريف أخرى للمنهج،[16] لكن أقربها إلى المعنى الذي نقصده هو ما ذكره الدكتور فؤاد موسى، وبالضبط التعريف الثاني.

المطلب الثالث: تعريف التعليم م في اللغة واصطلاحا:

التعليم في اللغة: قال ابن فارس ـ رحمه الله:"(علم) العين واللام والميم أصل صحيح واحد، يدل على أثر بالشيء يتميز به عن غيره. ومن ذلك العلامة، وهي معروفة. يقال: علمت على الشيء علامة. ويقال: أعلم الفارس، إذا كانت له علامة في الحرب. وخرج فلان معلما بكذا. والعَلَمُ: الراية، والجمع أعلام. والعَلَمُ: الجبل، وكل شيء يكون معلما: خلاف المجهل....وتعلمت الشيء، إذا أخذت علمه. والعرب تقول: تعلم أنه كان كذا، بمعنى اعلم."[17]

التعليم في الاصطلاح: قال العسكري (ت 395هـ) رحمه الله ـ في الفروق اللغوية وهو يتحدث عن الفرق بين التلقين والتعليم:" التلقين يكون في الكلام فقط والتعليم يكون في الكلام وغيره تقول لقنه الشعر وغيره ولا يقال لقنه التجارة والنجارة والخياطة كما يقال علمه في جميع ذلك)[18] وجاء في التوقيف على مهمات التعاريف:" التعليم: تنبيه النفس لتصور المعاني. والتعلم تنبه النفس لتصور ذلك..."[19] وقال السيوطي(ت911هـ) ـ رحمه الله ـ :"العلم: تصديق جازم مطابق للواقع لموجب. وقيل: صفة توجب لمحلها تميزا لا يحتمل النقيض بوجه. وقيل: معرفة الشيء على ما هو به، وقيل: هو انتفاء الخفاء."[20]

المطلب الرابع: معنى مناهج التعليم:

لابد أن أشير إلى أن التعليم والتربية متلازمان ولا ينفك أحدهما عن الآخر، وشاهد ذلك ما قاله الدكتور كمال الدين عبد الغني المرسي: (فالتربية والتعليم معنيان متلازمان لا يكادان ينفصلان)[21]ومنه إذن فيمكن القول بأن: منهج التربية: "نظام متكامل من الحقائق والمعايير والقيم الثابتة، والخبرات والمعارف والمهارات الإنسانية المتغيرة التي تقدمها مؤسسة تربوية إلى المتعلمين فيها بقصد إيصالهم إلى مرتبة الكمال التي هيأهم الله لها، وتحقيق الأهداف المنشودة فيهم".[22]

المبحث الثاني: التعريف بالمؤلِّف والمؤلَّف.

المطلب الأول: التعريف بالشيخ الطاهر بن عاشور . رحمه الله .[23]

لقد جرت العادة بين الباحثين أن المعرف لا يعرف، والطاهر بن عاشور أشهر من نار على علم، لكن من حقه علينا أن نسطر عنه كلمات . ولو في أسطر. قليلة تبين نشأته ونسبه ومولده ووفاته وبعض مميزاته. وسأركز في هذه الترجمة على الجانب العلمي للشيخ.

ولد محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، الشهير بالطاهر بن عاشور، بتونس سنة: (1296هـ/ 1879م) في أسرة علمية عريقة، حفظ القرآن الكريم، وتعلم اللغة الفرنسية، والْتحق بجامع الزيتونة سنة (1310هـ/ 1892م) وهو في 14 من عمره، وتخرج في الزيتونة عام (1317هـ / 1896م)، والْتَحق بسلك التدريس في هذا الجامع العريق، ولم تمض إلا سنوات قليلة حتى عين مدرسًا من الطبقة الأولى بعد اجتياز اختبارها سنة (1324هـ / 1903م).

وكان قد اختير للتدريس في المدرسة الصادقية سنة (1321هـ/ 1900م)، وكان لهذه التجربة المبكرة في التدريس بين الزيتونة – ذات المنهج التقليدي– والصادقية –ذات التعليم العصري المتطور– أثرها في حياته. عين نائبا أولا لدى النظارة العلمية بجامع الزيتونة سنة (1325هـ/1907م)؛ فبدأ في تطبيق رؤيته الإصلاحية العلمية والتربوية، وأدخل بعض الإصلاحات من الناحية التعليمية، واخْتير بعد ذلك في لجنة إصلاح التعليم الأولى بالزيتونة في (صفر1328هـ/ 1910م)، وكذلك في لجنة الإصلاح الثانية (1342هـ/1924م)، ثم اختير شيخا لجامع الزيتونة سنة (1351هـ/1932م)، كما كان شيخ الإسلام المالكي؛ فكان أول شيوخ الزيتونة الذين جمعوا بين هذين المنصبين، ولكنه لم يلبث أن استقال من المشيخة بعد سنة ونصف، بسبب العراقيل التي وضعت أمام خططه لإصلاح الزيتونة، وبسبب اصطدامه ببعض الشيوخ عندما عزم على إصلاح التعليم في الزيتونة.

وقد توفي الطاهر بن عاشور في (13 رجب 1393هـ/12 أغسطس 1973م) بعد حياة حافلة بالعلم والإصلاح والتجديد على مستوى تونس والعالم الإسلامي. مخلفا وراءه مجموعة من المؤلفات القيمة من بينها: (مقاصد الشريعة الإسلامية) و (أصول النظام الاجتماعي في الإسلام) و(التحرير والتنوير) في تفسير القرآن، و (الوقف وآثاره في الإسلام) و (أصول الإنشاء والخطابة) و (موجز البلاغة) ومما عني بتحقيقه ونشره (ديوان بشار بن برد) أربعة أجزاء. وكتابه هذا الذي نحن بصدد دراسته (أليس الصبح بقريب).

إن اكتساب الشيخ الطاهر بن عاشور موقع الريادة في الفكر الإصلاحي ليس غريبا عليه، ذلك أن البيئة التي نشأ فيها كانت دافعا قويا يساعده على ذلك؛ فنشأة الشيخ كانت في مناخ يتّسم بظهور الحركة الإصلاحية التونسية؛ "وجاء مولد الطاهر في عصر يموج بالدعوات الإصلاحية التجديدية التي تريد الخروج بالدين وعلومه من حيز الجمود والتقليد إلى التجديد والإصلاح، والخروج بالوطن من مستنقع التخلف والاستعمار إلى ساحة التقدم والحرية والاستقلال"[24]

المطلب الثاني: التعريف بكتاب الطاهر بن عاشور. رحمه الله . أليس الصبح بقريب . التعليم العربي الإسلامي . (دراسة تاريخية وآراء إصلاحية)

يحسُنُ بنا في مستهل هذا الحديث أن ننصرف إلى الحديث عن بعض الجوانب الخارجية للكتاب، التي لا شك ستُسعفنا في حُسن تمثُّل ما جاء فيه من أفكار، ووضعها في مكانتها الصحيحة كمرحلة أولى، وحتى نحسن التعبير عمَّا وقر في خاطرنا من فهم لأفكار ابن عاشور كمرحلة ثانية. ومن جانب آخرَ، حتى لا نسيء فَهْمَ ابن عاشور من خلال الأفكار الواردة في الكتاب.

ونقصِد بالجوانب الخارجية للكتاب: تلك الجوانب المعتمدة في دراسة الكتب خارجًا عن مضمونها، مِن قبيل: الكاتب، وعنوان الكتاب، والتحقيق، ودار النشر، والطبعات، ومنهج الكتاب من خلال تقسيم أبوابه وفصوله...

إن أول ما تصطدم به العين عند النظر في أي كتاب عند أول وهلة، هو العنوان؛ ولهذا السبب فإني سأجعل من دراسة العنوان فاتحة الحديث عن هذه الجوانب السالفة الذكر. لقد اشتهر هذا الكتاب بعنوان " أليس الصبح بقريب" دون ذكر بقية العنوان؛ ولذلك قال مقدم الكتاب عبد الملك بن عاشور: "وفي هذا الكتاب الذي عنوانه "أليس الصبح بقريب" استعرض استعراضا شافيا ..."[25] وقد أشار المؤلف . رحمه الله . في مقدمته على هذا العنوان، قال: "حتى وقف بي القلم عند انتهاء الاستراحة في مدة شهرين ...وعنونته "أليس الصبح بقريب"[26] إذا فلا يشك أحد في نسبت هذا الكتاب للإمام الطاهر بن عاشور. لكن الذي استوقفني هو الزيادة الواردة في العنوان (التعليم العربي الإسلامي دراسة تاريخية وآراء إصلاحية) هل هي من زيادة الناشر أم ماذا؟ وما أراه هو أن الزيادة من الناشر ليست أصلية.

وقبل قراءة ما جاء في الكتاب ينصرف ذهن القارئ إلى هذا الاقتباس القرآني ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود آية 80]

قال مقاتل (ت150هـ) . رحمه الله . في تفسير هذه الآية . بعد أن ذكر الحوار الذي دار بين لوط عليه السلام وملك الوحي . :" إن موعدهم الصبح ثم يهلكون قال لوط لجبريل: عجل علي بهلاكهم الآن فرد عليه جبريل أليس الصبح بقريب؟"[27]

فهنا الشيخ . وهو المفسر النحرير صاحب التحرير والتنوير. لم يأت بهذا العنوان عبثا؛ وإنما لغاية في نفسه، فكأنما يقول بأنه ينبغي أن نُسرع في إصلاح مناهج التعليم ولا نبطئ في ذلك، وشَاهدُ ما قُلْتُهُ هو ما ذكره في الفقرة الأخيرة من هذا الكتاب "وقد تحقق العمل بكثير من الملاحظات والمقترحات التي اشتمل عليها هذا الكتاب، فأسفر بها وجه الصبح الذي رجوت له قربا "[28]

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فعنوان الكتاب يوحي إلى أن قرب خروج المستعمر قد حان وليس ببعيد؛ ومن المعلوم أنه ألف هذا الكتاب قبل أن تستقل تونس؛ فكان الشيخ مزاولا للتعليم وكان يحمل هم إصلاحه مذ كان طالبا.

أما مسألة التقديم للكتاب فقد تولاها ابنه عبد الملك بن عاشور، في حين تم النشر مشتركا بين دار سحنون للنشر والتوزيع، ودار السلام. وكانت أول سنة طبع فيها الكتاب هي:1967م، لتتوالى بعد ذلك الطبعات الثانية، والثالثة، والرابعة، سنة 2015م، وقد اعتمدت في إنجاز هذا البحث على الطبعة الأخيرة.

بقي أن أتحدث عن وصف إجمالي للكتاب أي فصوله ومحتواه وهذا هو الفصل الثاني من البحث، فقد ارتأيت أن أجعله في فصل مستقل لأهميته.

الفصل الثاني: تلخيص موجز لكتاب: "أليس الصبح بقريب" التعليم العربي الإسلامي . دراسة تاريخية وآراء إصلاحية .[29]

في هذا الكتاب استعراض شاف لأطوار التعليم والطرق الكفيلة بتحقيق إصلاحه، وقد ضمنه الشيخ الطاهر بن عاشور آراءه الإصلاحية التي بدأ تدوينها سنة 1902م، مع العلم أن كلامه كان يعتبره .كما صرح بذلك الشيخ وابنه عبد الملك بن عاشور . البعض أضغاث أحلام أو ضرب من الخيال، لذلك فقد وُوجه بالنقد، لكنه ناضل بدون هوادة حتى أصبح عضوا بلجنة إصلاح التعليم بجامع الزيتونة سنة 1924م. أي أن فكره الإصلاحي بدأ قبل هذا التاريخ ب 22 سنة. وقد كان وقتها لا يزال طالبا.

كما تحدث فيه عن أهمية تعليم المرأة في الإسلام؛ بل ضرورته، وتعرض بالتفصيل للتنبيه عن مواطن الخلل التي أصابت مناهج التعليم في عصور الانحطاط، فأفاض في بيان أسباب تأخر العلوم وطرق تدريسها في العالم العربي عامة، وفي جامع الزيتونة خاصة، ثم عرض رؤيته الإصلاحية.

وعند الاطلاع على مؤلفات الشيخ خصوصا هذا الكتاب الذي نحن بصدد دراسته، تجده يدعو إلى التخلّص من الجمود، والملاءمة بين مقتضيات العصر ومقاصد الشريعة، والتخلي عن الاعتماد على النقل فقط، وكان يدعو أيضا إلى الأخذ بالعلوم الحديثة لتطوير فهم الشريعة، ومن أجل إصلاح مناهج التعليم، فهو يرى بأن لكل عصر حاله، ولكل مجتمع خصوصياته؛ فليس بالضرورة أن نبقى حبيسي ما وجدنا عليه السلف؛ بل ينبغي أن نتم ما بدؤوا ونبتكر كما ابتكروا. وحتى لا يكون قولنا هذا خرصا أو إعجابا بشخصية الشيخ الطاهر بن عاشور، فإن نظرة موجزة في تفسيره " التحرير والتنوير " تدل على ما قلناه هنا، فهو يأتي بأقوال السلف، لكنه لا يكتفي بذلك بل يناقش الأقوال ويرجح بينها، ويستأنس في تفسيره بالعلوم النظرية. وكتابه في المقاصد كذلك من أوجه تجديده ونبذه للتقليد.

وقد كان تركيزه على النهوض بالعلم وتوسيع مجالاته، لذلك كان رافضا لصيغ التعليم السائدة والتي تركز على الحفظ والتلقين، وكان هدفه الأساس هو النهوض بالتعليم. وقبل حديثه عن أطوار التعليم بدأ بطرح السؤال التالي: لماذا نسعى إلى إصلاح التعليم؟ وقد أجاب على ذلك بقوله: نسعى إلى ذلك لنحصِّل السعادة حيثما توجهنا؛ وذلك بجلب المنافع واتقاء المضار... ومن أجل أن يكون المتعلم راضيا عن نفسه واثقا من حصول مبتغاه... ولأن تقدم أي حضارة رهين بتقدم تعليمها.

وبعد القراءة المتأنية لهذا الكتاب يمكن أن نقسمه إلى ثلاثة فصول كبرى تندرج تحتها عناوين فرعية وهي كالتالي: الفصل الأول: أطوار التعليم في عصر الأمة العربية قبل الإسلامية. الفصل الثاني: صفة التعليم الإسلامي وأساليبه ومناهجه في مختلف العصور. الفصل الثالث: أسباب تأخر العلوم ونظرة في إصلاح مناهجه. وقد ذكر الشيخ مطلبا سماه: "وصف إجمالي لحال التعليم في وقت تحريرنا لهذا الكتاب" وقد ارتأيت أن أقدمه قبل غيره وإن كان الشيخ أخره؛ فذكره في نصف الكتاب تقريبا (في الصفحة 135). والسبب في تقديمي إياه هو أن ما ذكره فيه مبين لكل فصول الكتاب وما احتوت عليه.

وملخص ما ذكره الطاهر بن عاشور كما يلي:

تحدث فيه عن النظام وأحوال الدروس ومدرسيها وأحوال الفنون والكتب وأحوال التلاميذ.

1/ **النظام**: فحالة التعليم الموجودة حينها هي طريقة شبيهة بالاختيارية؛ حيث يختار المدرس ما يشاء من الكتب والأوقات وعدد الدروس. وأن التلاميذ يختارون أيضا ما يشاءون؛ يختار التلميذ مدرسه ومقدار الفنون والدروس ...وقد ترتب على ذلك نقص فنون كثيرة وتفاوت كبير بين المتعلمين.

وطرائق التدريس التي كانت معتمدة وقتئذ أربعة: الأولى: أن يطلب التلاميذ من الشيخ أن يُقرِأهم كتابا معينا. الثانية: الانتقال التدريجي لمن يختم كتابا إلى ما بعده. الثالثة: اختيار الشيخ كتابا يعرضه على التلاميذ فيجيبونه لقراءته. الرابعة: اقتراح المشايخ النظار زيادة دروس ممن يعينونهم لمصلحة.

وأما أوقات الدروس فغير مضبوطة في الابتداء والنهاية؛ بل ربما تداخلت الدروس. وكان قبل دخول الجامع الأعظم ينبغي على التلميذ أن يكون له نصاب في أربعة فنون: التجويد، والتوحيد، والفقه، والنحو. وبعد حضور التلميذ أي درس، ينبغي لشيخه أن يوقع له في دفتر يكون قد أخذه من النظارة.

وفي نهاية كل عام تدريسي يجرى اختبار على جميع التلاميذ للانتقال من كتاب إلى ما فوقه وكان الاختبار شفاهيا. ومن أجل الحصول على الشهادة ينبغي على التلميذ أن يتقدم بتفهيم درس يختاره هو أو تعيّنه اللجنة وتعطى له مدة 30 دقيقة للإعداد. أما العطل وما يعبر عنه في تونس بالبطالات ففي السنة ثلاثة أشهر وواحد وعشرون.

2/**أحوال الدروس ومدرسيها**: الواجب على المدرس الرسمي درسان في اليوم، أما المتطوعون فقد تصل دروسهم إلى 10 أو 14 درسا لكن قلما تؤدى كلها. وقد كانت التمارين في الدروس قليلة جدا.

3/ أحوال الفنون والكتب: ذكر أن عدد الفنون التي كانت وقتها والتي جاء بها القانون الصادقي هي 25 فنا موزع كما يلي: العالي 15 فنا، المتوسط 21 فنا، الابتدائي 12 فنا. وقد اقتصر على بعض الكتب دون غيرها، خصوصا التي انحصر فيها الامتحان فقط.

4/ أحوال التلاميذ: عدد التلاميذ كل عام زهاء الألف؛ 100 في العالي، و400 في المتوسطة؛ و500 في الابتدائي. وحضورهم الدروس كان على هيئة الحلق المحيطة بالمدرس، وليس لهم كبير محافظة على أوقات الدروس ولا على إحضار البال فيها. وكان إجلالهم للأساتذة.

الفصل الأول: أطوار التعليم في عصر الأمة العربية قبل الإسلامية: وقد تحدث فيه عن نقطتين أساسيتين: النقطة الأولى وهي التعليم العربي قبل الإسلام والنقطة الثانية: التعليم العربي بعد ظهور الإسلام. وقبلهما بدأ بتمهيد عام ذكر فيه أن التعليم من أصول المدنية البشرية، وأنه يبحث عن التعليم الذي يفيد ترقية المدارك البشرية وصقل الفطرة الطبيعية لإضاءة الإنسانية وإظهارها في أجمل مظهر.

وقد كان أول رقي للتعليم بدأ بظهور الأديان الأولى وفي مقدمتها السماوية التي انتشلت الناس من حضيض الهمجية إلى الرقي وتهذيب الأخلاق، وكان الكاهن وقتها يجمع بين الكهنة والعلم معا؛ فكان العلم محتكرا عند السلطة ولم يقبل عليه العامة.

1/التعليم العربي قبل الإسلام: كانوا في الجاهلية يعلمون أولادهم على الفصاحة ليذودون عنهم الخطأ ويعصمونهم من اللكنة خصوصا بعد الاختلاط؛ إذ هو أصل فساد اللغات، ولذلك احترزوا من ذلك بأمرين: الأول: ترك الاختلاط بالمصاهرة لغيرهم. الثاني: ترك المقام بمدائن مجاوريهم من العجم. فالعرب إذا ركزوا على أربعة أمور: 1/حفظ اللسان 2/ تعليم الأخلاق 3/ تعليم الشعر 4/ الخطابة. أما تعليم البنات فقد كانوا يعلمونهن تدابير البيت وحسن التبعل لأزواجهن والشفقة في تربية صغار إخوانهن. والعلوم كانت جارية فيهم على ما تقتضيه حاجاتهم.

2/ التعليم العربي بعد ظهور الإسلام: انفرد الإسلام من بين سائر الأديان بالتنويه بفضل العلوم والأمر بالاتصاف به؛ وحسبك أن أول ما نزل من القرآن فعل أمر بالقراءة، فجعل من العلم ما هو فرض عين وما هو فرض كفاية، بل حذر النبي صلى الله عليه وسلم من كتم العلم. وكان إطلاق أسرى بدر رهين بأن يعلّم الأسير عشرة من أبناء المدينة الكتابة. ثم انتقل للحديث عن مبدأ ظهور علم اللغة، وأن العلوم التي كانت تدرس وتدون يومئذ اثنين وثلاثين علما.

الفصل الثاني: صفة التعليم الإسلامي وأساليبه ومناهجه في مختلف العصور:

صفته: بدأ ذلك بذكر مجموعة من النصوص تدل على أهمية العلم فكانت أول آية نزلت تحث على القراءة، والتعلم ليس حكرا على فئة دون أخرى، كما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجلس لأصحابه في المسجد ليعلمهم؛ وكان تعليمه الناس على ضربين: يملي على حاضري مجلسه. أو يجيب عن أسئلة السائلين. **وأما مناهج التعليم**: فقد أشار إلى أنها تختلف باختلاف العصور والأقاليم

وصفاتها، وبمقدار ما يتزايد من العلوم، والمنهج المعتمد في عهده صلى الله عليه وسلم هو التلقي والحفظ. ثم انقسم التعليم إلى درجتين: 1تعليم القران وكتابته للصبيان ومن في حكمهم. 2/ تعليم معاني القران وأحكام الشريعة للكبار.

وكان التعليم درجتين:

1 التعليم الابتدائي في الكتاب عن طريق المؤدب/ المكتبة يتلقى فيه الصبي حروف الهجاء والكتابة تدريجيا والسور القصار. ولحفظ القران طريقتان: من سورة البقرة إلى الناس – أو الابتداء من آخر سورة.

2 التعليم ما بعد الابتدائي: تلقي دروس العلم بالفهم وشرح المتون ويرتقون في تدريس وتدارس الكتب وكانوا يعتمدون ثلاثة طرق: الطريقة الأولى: كان كل عالم مختص بفن يملي على الناس من ذلك الفن. الطريقة الثانية: التزام قراءة تأليف معين. الطريقة الثالثة: السؤال والجواب.

ثم انتقل للحديث عن صفة الدروس، وتعليم المرأة، وذكر انبثاث العلوم الإسلامية في أقطار الإسلام: وكان كلما ذكر دولة إلا وذكر مواضع التعليم فيها وصفته، ثم خص تونس بالحديث بشكل من التفصيل سنذكر ذلك بشكل مختصر:

درجات التعليم بتونس:

التعليم بتونس ثلاث درجات: ابتدائية، متوسطة، عالية.

1: فتبتدئ بالمكتب القرآني للخط والقراءة والرسم المصحفي وحفظ بعض المتون.

2 بعد ختم القرآن ينتقل التلميذ إلى الجامع الأعظم يقرأ ثلاث سنين يدرس بعض العلوم ثم في الدرجة الثانية أربع سنين وفي السنة الأخيرة . أي الرابعة . يقوم بالتحقيق للعلوم وتسمى سنة التحضير وتنتهي هذه بالحصول على شهادة التطويع.

3 بعد التحصيل على التطويع يشتغل المحصل بالتعليم العالي، فيطلب منه إقراء الكتب الابتدائية، ثم يتدرج فيها ويشتغل بقراءة المرتبة العالية. كان وضع التعليم هذا سائدا في الجزائر وتلمسان والمغرب الأقصى.

مواضع التعليم:

دروس الجمعية الخلدونية: تأسست سنة 1314هـ، والغرض منها السعي بطريقة علمية للوسائل الموصلة لتوسيع نطاق المعارف الفكرية الخارجة عن العلوم الأصلية التي كانت تدرس في الصادقية وغيرها والتي كانت غير موجودة بالجامع الأعظم (الجغرافيا، التاريخ، الحساب، الهندسة)

المدرسة التأديبية (العصفورية): تأسست سنة(1312هـ) من أجل تخريج مؤدبين متأهلين للقيام بالتعليم الابتدائي. والغرض منها ضبط أساليب المعلمين للتعليم الابتدائي، بأن تهيئ معلمين يمكنهم القيام بالتعليم في مكاتب القرآن.

الفصل الثالث: أسباب تأخر العلوم ونظرة في إصلاح مناهجه. لقد أرجع أسباب تأخر التعليم إلى أمرين اثنين: الأول: يرجع إلى الأسباب العامة التي قضت بتأخر المسلمين. والثاني: يرجع إلى تغير نظام الحياة الاجتماعية في أنحاء العالم تغيرا استدعى تبدل الأفكار والأغراض.

وبعد ذلك انتقل الشيخ للحديث عن الأسباب المتفرعة عن الأمرين المذكورين، وقال بأن فساد التعليم إما من فساد المعلم أو من فساد التآليف أو من جهة النظام العام، وأما الأسباب التي تعود إلى فساد النظام فذكر ثلاثة عشر سببا من بينها: عدم وجود مراقبة صحية على التعليم والتعلم، والتسيب وعدم الضبط، وعرو التعليم عن مادة الآداب وتهذيب الأخلاق، وهذا الأخير هو السبب الذي قضى على المسلمين بالانحطاط. كما ذكر من أسباب التأخر: سلب العلوم والتعليم حرية النقد الصحيح... إلى غير ذلك من الأسباب التي تحدث عنها وسنفصل في ذلك لاحقا في الفصل المولي.

فبعد أن شخص الداء انتقل إلى تحديد الدواء وبدأ يصف ما كان يعاني منه الجامع الأعظم من مشاكل وسبل إصلاحها؛ فقد تم تأسيس مجموعة من الإصلاحات على رأسها إنشاء المدرسة الخلدونية سنة 1214هـ ، بهمة نخبة من العلماء وبمساعدة الوزير

المقيم بتونس "ريني ميللي" والغرض الذي من أجله أسست المدرسة هو البحث بالطريقة العلمية عن الوسائل الموصلة لتوسيع نطاق المعارف خصوصا المعارف التي لم تكن بالجامع الأعظم، وقد كانت أعمال المدرسة طيلة ثمان عشرة شهرا حرة إلى حدود 1315هـ وهي السنة التي تشكلت فيها لجنة للنظر في تنقيح برامج التعليم بالجامع الأعظم باقتراح من الوزير المذكور حيث كتب إلى السيد محمد العزيز بوعثور تقريرا عن هذا الإصلاح وملخصه: تحدث في البداية عن أهمية اللغة العربية ثم عن مكانة الجامع الأعظم وفضل تونس وقال بأنه يجب المحافظة على قيمة ومكانة جامع الزيتونة بالحرص على العلوم التي تدرس به وفحص العلوم التي تزيدها ارتقاء ونجاحا، وقد تحدث في هذا النموذج الإصلاحي عن ثلاث نقاط أساسية : التعليم الابتدائي – التعليم الثانوي – التعليم النهائي.

التعليم الابتدائي: تعليم الصبيان الذين سنهم من أربع إلى إثني عشر سنة، ويقع ذلك في الكتاب وتحرص الدولة على اختيار المؤدبين ويكون التعليم منصبا إلى حفظ القران الكريم للقيام بالواجبات الدينية، ويحسن أن يضاف إلى لحفظ القر تعليم مبادئ بعض الفنون، ثم إن ابن اثنتي عشرة سنة لا ينتقل للتعليم الثانوي إلا بموجب امتحان.

التعليم الثانوي: من سن الثانية عشر إلى الثامنة عشر، ويكون بالمساجد والزوايا، ويدرس العلوم التي بدأ بها بالمداخيل في الابتدائي بنوع من التفصيل شيئا ما.

التعليم النهائي: من سن الثامنة عشرة فما فوق ويتلقاه المتعلم بالجامع الأعظم، والعلوم التي تجعل لهذا القسم هي العلوم التي كانت تدرس في الثانوي، لكن بشكل أرقى. ويعطى المتعلم شهادة تخول له الحصول على وظيفة.

ثم بعد ذلك ذكر الوزير مجموعة من المقترحات التي من شأنها أن تزيد في نتائج التعليم منها:

+أن يخص كل مدرس بفن واحد أو فنين لا غير. + لا يعطى للطالب التخيير في التعليم على أي شيخ أراد ويلزم بتعاطي ما يناسب حاله من الدروس على الشيخ المختص به.

+أنه على المعلم أن يحضِّر درسه ويرتبه في ذهنه ويقدمه لطلبته على أقرب وجه ولا يشوش عليهم بما لا يستوعبون.+ أن يلزم الطالب بكتابة الدرس ويلزم المعلم بأخذ دفاتر طلبته ويصححها وينبههم على الخطأ.+ تحسين وضعية المعلم المادية حتى لا يضطر إلى احتراف حرفة أخرى غير مهنة التدريس.

وقد أسفر على هذا تكوين لجنة تنظر في إصلاح أساليب التعليم بالجامع الأعظم، وترأس اللجنة الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور ومجموعة من الأعضاء (مالكية، حنفية، ومدرسون) وملخص هذه اللجنة وما استقرت عليه ألقاه السيد محمد العزيز بوعثور وهو كالتالي: (تحدث في البداية عن فضل العلم وأن الجامع الأعظم هو الروض الذي تتفتح منه أزهار العلوم وذكر أهمية العلوم التي تدرس به، والدروس التي ينبغي أن تضاف، فيتم المزج بين العلوم التي تدرس في جامع الزيتونة الراجعة إلى الاعتقاد وإحياء العلوم الرياضية على وجه يؤول بالنفع على الطلبة، ثم ذكر أنه ينبغي تعيين محل لتدريس تلك العلوم الرياضية، وقد عين لذلك المدرسة الخلدونية، ثم ختم كلامه بالحث على المشاركة في إصلاح التعليم من الأعضاء والممارسين للتعليم)

ثم قدم بعده مدير التعليم "ماشويل" لائحة جعلت أساسا لمداولات اللجنة وتشتمل على اثني عشر فصلا.

وقد علق الشيخ ابن عاشور على ما سبق قائلا: " وهي كما يرى الناظر صالحة لسير التعليم ولكن كسيت كساء سوء الظن، فتلقاها شيوخ جامع الزيتونة بسوء الظن وتخيلوا أنها شرك نصب ليبطل به تعليم العلوم الإسلامية ... [30] وبذلك تم إلغاء مجموعة من التدابير المذكورة وتعديل بعضها، وأما ما يخص أساليب تعليم الجامع الأعظم فلم تجد آذانا صاغية وعورضت بشدة من طرف مجموعة من المشايخ منهم من كتب في ذلك ومنهم من عارضه شفهيا، وكتب الشيخ الطاهر جعفر: "تأملت في المرقوم أعلاه وعلمت منطوقه وفحواه، ثم عرضته على قواعد الدين، فرأيت أن قواعد الدين تأباه" (في هذه الفترة كان شيخنا لا يزال طالبا) ومنذ يومئذ تقرر فصل التعليم الزيتوني عن إدارة العلوم والمعارف

وقد تحدث عن وجوه من الإصلاح؛ حيث تحدث عن إصلاح التآليف وذكر أسباب تأخرها العائدة إلى أسباب عامة وآخرى خاصة أي خاصة بكل علم على حدا فكان يذكر العلم ويعرفه ويذكر من ألف فيه أول مرة ثم سبب تأخره ويذكر الحل للنهوض بهذا العلم من جديد.

ثم بعد حديثه عن إصلاح التآليف انتقل للحديث عن إصلاح من يشتغل بهذه التآليف (المعلمون) واعتبر إصلاحهم ركن عظيم من إصلاح التعليم وإصلاح طريقة الامتحانات والمناظرات.

ثم انتقل للحديث عن مراتب المدرسين وحصرها في خمسة أنواع:

1 النحرير الذي يميز الصحيح من الفاسد بنقد وفهم مصيب مع التضلع في الكتب التي لا تدرس من أصول العلوم، وهو قليل بالجامع. 2المتمرن بكتب التدريس الواقف على إصلاحاتها المقتدر على تدريس المهم منها بالفهم والإفهام على ما هي عليه. 3 نقلة لما في الكتب، ينقلون ما يحتطبونه بالليل ليأتوا به صباحا؛ وهؤلاء أتعب خلق الله عيشا وأقلهم تدريسا. 4أناس يفهمون ويدرسون ولكنهم لا يميزون في ذلك الصحيح من الفاسد. 5 طائفة كثيرة دأبها صراح الخطأ والستر على العيب بخطأ.

ثم ذكر كلمة ختامية مفادها أن هذه الآراء الإصلاحية نابعة عن تجربته الشخصية في التعليم.

ثم ذيل هذا الكتاب بعنوان سماه تذييل النهوض بالإصلاح؛ حيث أشار فيه إلى أنه قد ظهرت فئة داعية إلى إصلاح التعليم ومناهجه، فبدأت الكتابة في الجرائد. ثم ختم كلامه بقوله: " هذا ما عن إثباته من أحوال العلوم الإسلامية وطرائق تعليمها وأسباب النهوض بها والانحطاط العارضين لها في عديد الأعصر... وقد تحقق العمل بكثير من الملاحظات والمقترحات التي اشتمل عليها هذا الكتاب..."[31]

الفصل الثالث: التعليم العربي: أسباب تأخره ومناهج إصلاحه عند الطاهر بن عاشور.

هذا الفصل يقتضي أن يقسم إلى فصلين، الأول خاص بأسباب تأخر العلوم حسب الطاهر بن عاشور، والثاني خاص بمناهج إصلاح التعليم عند الشيخ. لكن إن ذكرت الأسباب التي أدت إلى تأخر التعليم منفصلة عن مناهج إصلاحها قد يكون هناك خلل، وسأكون مضطرا إلى ذكر الأسباب أثناء الحديث عن سبل العلاج، ولذلك فسأذكر السبب مرفوقا بمنهج إصلاحه.

إن المصلح كالطبيب لا يكون دواؤه شافيا إلا إذا شخص العلة وعرف أسبابها، فكذلك المصلح لا يكون إصلاحه ناجعا إلا إذا عرف مواطن الخلل وأسبابه[32] ولذلك فشيخنا ابتدأ بجرد الأسباب التي أدت إلى تأخر التعليم. ولقد أرجعها إلى أمرين اثنين؛ الأول: يرجع إلى الأسباب العامة التي قضت بتأخر المسلمين، والثاني: يرجع إلى تغير نظام الحياة الاجتماعية في أنحاء العالم تغيرا استدعى تبدل الأفكار والأغراض، وهذا التغير استدعى تغير أساليب التعليم ومقادير العلوم المطلوبة، وقيمة كفاءة المتعلمين.

بعد ذلك انتقل الشيخ للحديث عن الأسباب المتفرعة عن الأمرين المذكورين، وقال بأن فساد التعليم إما من فساد المعلم أو من فساد التآليف أو من جهة النظام العام، وبدأ حديثه عن الأسباب العائدة إلى النظام، وتجده أحيانا يذكر السبب مرفوقا بمنهج إصلاحه، وأحيانا لا يذكره؛ لكن بإلحاق الكلام المتقدم بالمتأخر تستنتج المنهج لإصلاح سبب التأخر.

ولهذا سأعمد إلى تقسيم هذه الأسباب إلى ثلاثة مباحث ليسهل الاستفادة منها، لأن الشيخ .كما ذكرت في المقدمة . لم يقسم كتابه إلى أبواب أو فصول؛ وإنما عبارة عن عناوين فرعية كثيرة.

وأما عن المنهج المتبع في ذلك؛ فأذكر السبب وأرفقه بشيء من الشرح إن استدعى الأمر ذلك، ثم أردفه بالمنهج الكفيل لإصلاحه.

المبحث الأول: أسباب تأخر التعليم التي تعود إلى فساد النظام، ومناهج إصلاحها حسب الطاهر بن عاشور:

لقد أرجع هذه الأسباب إلى ثلاثة عشر سببا وبيان ذلك كما يلي:

السبب الأول: عدم وجود مراقبة صحية على التعليم والتعلم: وقد وصف هذا السبب بأنه هو الذي فسح للداء مجال السريان في الأمة، ومنهج إصلاحه. كما يرى: هو أن يحرص المسئولون عن وضع أساليب التعليم بترتيب كل ما يبلغ بالعلم والمتعلمين إلى الغاية المطلوبة في أقرب وقت. ويشترط في المراقبين للتعليم: معرفتهم بحاجات الزمان وغايات العلوم، وينظرون إلى الروح لا إلى الجثمان، وأن يكونوا خبراء بما أصاب مزاج التعليم. وهذه المراقبة كانت منذ عصر الصحابة وأول ذلك في عصر الخليفة الثالث الذي حمل الناس على مصحف واحد، وكان علي رضي الله عنه ينهى من لم يره أهلا عن التكلم في العلم. وإلى مثل ذلك أشار كمال الدين عبد الغني المرسي حيث قال: (إن إعادة النظر في قصور المناهج وضعفها وتدنيها يحتاج إلى تجرد وإخلاص وإلى شجاعة تنظر إلى المسئولية أمام الله قبل كل الاعتبارات التي أدت ولا تزال تؤدي إلى ضياع جهود مبذولة وسنوات ضائعة؛ لأن التغير المستمر في أساليب الحياة وكميات المعرفة الإنسانية تقتضي إعادة النظر دائما في المنهج وأساليب الدعوة).[33] وفي تونس كان يقوم بهذه المهمة الشاوش للمؤدبين لكن نظريا فقط، ثم في عهد أحمد باشا وضع ترتيبا للتعليم فوضع أربعة نظار على تعليم جامع الزيتونة وكانت مهمتهم مراقبة حضور المدرسين وتسجيل الغياب، وحفظ المكتبة والمحاسبة، وانتخاب المدرسين فأعطى ذلك نتائج ايجابية؛ لكن سرعان ما تهاون النظار عن مهمتهم فتأخر التعليم من جديد.

السبب الثاني: التسيب وعدم الضبط: ومعنى ذلك أن المتعلم يتعلم باختياره والمدرس يدرس ما يَرُوقُ له من الكتب باختياره دون رقيب ولا حسيب، وهذا أدى إلى فساد المنظومة التعليمية، ومنهج إصلاح ذلك اتخاذ أربعة أمور اقترحها مصلحنا الجليل الطاهر بن عاشور؛ جعله إلزاميا، وضبط أوقات المدرسين، وضبط محل التعليم، وتقسيم التلامذة على العلوم والدروس:

جعله إلزاميا: فللوزارة الوصية المختصة بالمجال التعليمي الحق في إلزام رعاياها بالتعلم في حالة عدم وصولهم للرشاد، وحملهم على مصالحهم بالجبر ما داموا في طور الطفولة.

ضبط أوقات التعليم: لأن ذلك هو السياج الوحيد لدفع التداخل بين أوقات الدروس وهو المبدأ العام لكل نظام في توزيع التلاميذ ومراقبة المدرسين وتوقيت مقادير الدروس، لأن التلميذ إذا لم يكن يعرف مدة درسه فسيأتي وقت الدرس الثاني وهو في الدرس الأول، ويقع له تشويش ذهني فيفوت عليه الدرسان معا. والمشكلة التي نعيشها اليوم في مدارسنا العمومية هي مشكلة ضبط أوقات التعليم؛ فمثلا تجد المتعلم لديه حصة اللغة العربية مع الثامنة وحصة التربية البدنية بعدها، ثم لديه حصة الرياضيات. فكيف لهذا المتعلم بعد جهد بدني وإرهاق وعرق... أن يركز في الحصة الأخيرة.

ضبط محل التعليم: لأنه بغيابه يصعب التحكم في أخلاق المتعلمين، ويستحسن أن لا يكون المحل هو المسجد لأنه يكون بعيدا عن الضبط بكثرة الدخول والخروج فيه، وإقامة الصلوات الخمس به.

وفي وقتنا الراهن كذلك نعاني مشكلة ضبط محل التدريس، حيث تجد المؤسسة التعليمية بجوار شارع عمومي، أو تجدها بجوار مطار للطائرات وقس على ذلك، وكل هذا ينعكس سلبا على مردودية التعليم.

تقسيم التلامذة على المراتب اللائقة بهم: أن يخصص كل مدرس بطائفة من التلاميذ يمكن إحصاؤهم ومراقبة أحوالهم العلمية والنظامية.

وملخص ما سبق في النقاط التالية: أن يخص كل مدرس بفن واحد أو فنين لا غير. وأن لا يعطى للطالب التخيير في التعليم على أي شيخ أراد ويلزم بتعاطي ما يناسب حاله من الدروس على الشيخ المختص به، وعلى المعلم أن يُحَضِّر درسه ويرتبه في ذهنه، ويقدمه لطلبته على أقرب وجه ولا يشوش عليهم بما لا يفهمون. وأن يلزم الطالب بكتابة الدرس ويلزم المعلم بأخذ دفاتر طلبته ويصححها وينبههم على الخطأ إن وجد. لكن لا يمكن ذلك إلا بتوفير الظروف الملائمة ويكون عدد المتعلمين قليلا، أما والقسم يحوي جيشا عرمرما من المتعلمين.

السبب الثالث: عُرْوُ التعليم عن مادة الآداب وتهذيب الأخلاق: اعتبر هذا هو السبب الذي قضى على المسلمين بالانحطاط، ولذلك اعتنى المسلمون في الصدر الأول بمسألة الأخلاق؛ فمن العار الكبير أن ترى كثيرا مما ينتصبون لتعليم النشء لا يتصفون بالأخلاق الحميدة، ولذلك رزئت الأمة أنفع عنصر في حياة الأمم وهو الأخلاق، وقد ساق مجموعة من الاستشهادات تدل على حرص السلف الصالح على التحلي بالأخلاق؛ قال: (قال عتبة بن أبي سفيان لعبد الصمد مؤدب أولاده: "ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بني إصلاح نفسك؛ فإن أَعْيُنهم معقودة بعينك؛ فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبيح عندهم ما استقبحت، وروهم سير الحكماء، وزد في تأديبهم أزدك في بري"... وقال الحكيم جول سيمون: "ليست وظيفة المدرسة مقصورة على التعليم فقط، فإن بث الفضيلة والإقدام من أهم وظائف المدرسة") [34] والمنهج لإصلاح هذا الخلل يلخصه ابن عشور ـ رحمه الله ـ في قوله: (والواجب من حيث خطتنا التي نريد أن تسير فيها أبناؤنا وتلامذتنا هو التدرب على ضروب الحكمة ونقد مقتضيات الزمان وعلو الهمة والغيرة للحق ...والتباعد عن الخفة والطيش، وعن الجمود والكسل ...)[35] وبالجملة فإن هذه الأسباب الثلاثة عامة لتأخر التعليم في كل دولة، وما سيذكر بعد ربما يخص بعض الجهات دون بعض، وسيركز حديثه عن تونس وما جاورها.

السبب الرابع: سلب العلوم والتعليم حرية النقد الصحيح في التعليم العالي: وقد صدر في ذلك قرار قال :(وقد جاء في ترتيب سنة 1292هـ الفصل 15:"ليس لأحد أن يبحث في الأصول التي تلقتها العلماء جيلا بعد آخر بالقبول، ولا أن يكثر من تغليط المصنفين، فإن كثرة التغليط أمارة الاشتباه والتخليط؛ بل عليه أن يبذل الوسع في فهم مرادات الفضلاء)[36]وقد اعتبر ذلك خلل بمقصد من مقاصد التعليم وهو إيصال العقول إلى درجة الابتكار وتوسيع المعلومات من أجل تقدم العلم وأساليبه، فإذا سلبت حرية النقد انحط التعليم وأصبحنا نتبع الأقوال من غير معرفة دليل القائل، فإن منع النقد والبحث أمر بإبقاء الفساد على فساده، وهو شعبة من شعب الرضا بالموجود الذي هو من أكبر أسباب التأخر.

ومنهج إصلاح ذلك هو: أن تترك حرية النقد البناء خصوصا في التدريس العالي، أما التلاميذ المبتدئون والمتوسطون في أول الرتبة فإنا نلقي إليهم القواعد، وما كان من رأي فيه نظر ننقحه ونلقيه إليهم من غير إشعار بما كان فيه من خلل. كما يقترح ـ على الأقل ـ أن تناط خطة النقد بجمعية علمية تراقب العلوم والتعليم، لأن عدم النقد والتصحيح وإبقاء الخطأ يوسع دائرة الخلاف ويؤخر التعليم.

السبب الخامس: الغفلة عن إعطاء كل مرتبة من مراتب التعليم ما تحتاجه من الأسلوب اللائق بها:

يريد بهذا السبب أنه إذا لم نراع سن المتعلمين وإعطاء كل فئة ما تحتاجه، فإن ذلك سيؤدي إلى تأخر التعليم، ويلحق بهذا أيضا الخلل في تعيين العلوم والكتب لتلامذة قسم من الأقسام؛ كتكليف تلامذة السنة الأولى بدروس في المنطق مثلا فهو غير صائب البتة.

وهذا ما تحدث عنه بياجي الذي تحدث في نظريته عن مراحل التعلم، قال الدكتور علي حسين حجاج: (ووفقا لنظرية بياجيه هناك أربع مراحل رئيسية من مراحل التطور المعرفي عند الأطفال)[37]. ويذكر كل مرحلة وكيفية المعارف التي ينبغي أن تدرس خلالها.

ومنهج إصلاح ذلك هو الاعتناء بما يجعل ذهن التلميذ مراعيا لما تجب مراعاته من القواعد في المرتبة الابتدائية. وفي المرتبة المتوسطة يركز واضعي المناهج الدراسية على تقوية التفكير والجمع والتحليل. وفي المرتبة العالية يصير التعليم يرمي إلى الاستنتاج والنقد.

السبب السادس: إهمال التمرين والعمل بالمعلومات: فغاية كل علم هو العمل، فها هي ذي علوم تدرس وكتب تختم، لكن لا ترى في من نحادث أو نجالس فصيح لسان أو بليغ بيان، يقرأ الناس علم البلاغة والأصول والنحو... فلا ترى من يتجنب اللحن في قوله ودرسه وهذه طامة كبرى. ولذلك (دعا ابن عاشور المدرسين إلى الابتعاد عن طرق التلقي، والإكثار من الأشغال التطبيقية، وذلك قصد تدريب ملكة الطالب على الفهم المستقل، بدل شحن ذاكرته بمعلومات كثيرة قد لا يحسن التصرف فيها في حياته اليومية، وتدريبه بالتعويل على نفسه في التحصيل على ثقافته العامة والخاصة)[38]

فالغاية من وراء التعلم هو العمل به في الحياة اليومية وإلا كان العلم كلا على مولاه أينما يتوجه به لا يأتي بخير؛ قال الخطيب البغدادي رحمه الله:(العلم يراد للعمل كما العمل يراد للنجاة، فإذا كان العمل قاصرا عن العلم كان العِلم كَلاً على العَالِم، ونعوذ بالله من علم عاد كلا، وَأَوْرَثَ ذُلاً، وصار في رقبة صاحبه غُلاً)[39] وقد قال أيضا:(قرأت على ظهر كتاب لأبي بكر محمد بن عبد الله بن أبان الهيثمي:

إِذَا الْعِلْمُ لَمْ تَعْمَلْ بِهِ، كَانَ حُجَّةً ... عَلَيْكَ، وَلَمْ تُعْذَرْ بِمَا أَنْتَ حَامِلُ

فَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَبْصَرْتَ هَذَا فَإِنَّمَا ... يُصَدِّقُ قَوْلَ الْمَرْءِ مَا هُوَ فَاعِلُ)[40]

فالعمل بالعلم يرسخه وبذلك يجد المتعلم لذة التعلم.

السبب السابع: غُرْوُ التعليم عن المصالح الصحية: فالإنسان خلق ليعلم ويعمل، فالعلم بالعقل والعمل بالبدن وهما متكاملان، وعدم الاعتناء بالجانب الصحي في مجال التعليم ونُظمه يؤثر سلبا على عطاء المتعلمين. فالإسلام اهتم ببناء صحة الإنسان قال كمال الدين عبد الغني المرسي: (إن العناية بجسم الإنسان وبصحته ومظهره من أهم الأمور التي عنى بها الإسلام؛ لأن الجسم أداة الاتصال بين العالم الروحي والعالم الأرضي، فالإسلام يهدف إلى بناء المسلم الصحيح القوى المعافى)[41]

السبب الثامن: عدم تقارب التلاميذ الوافدين إلى التعليم بجامع الزيتونة: كان المتعلمون يفدون من جهات شتى إلى جامع الزيتونة بتونس من أجل تلقي العلم، ولكن قدراتهم متفاوتة؛ فمنهم من يحفظ أغلب المتون ومنهم من لا يحسن حتى الكتابة، ولذلك يكونون متفاوتي الأهلية في تلقي الدروس، ونتج عن هذا ظهور نتائج غير متقاربة بين المتعلمين. ولإصلاح هذا الخلل يقترح الشيخ أن ينظم تعليم ابتدائي قبل تعليم الجامع الأعظم. وما يعبر عنه حاليا في علوم التربية بمراعاة الفروقات الفردية للمتعلمين.

السبب التاسع: دروس التطوع: ويقصد الشيخ الطاهر بن عاشور بهذا السبب: دروس التطوع، أي الدروس التي يلقيها المعلمون تطوعا سواء الرسميون أو الحاصلون على شهادة التطويع، وقد أرجع فساد التعليم العائد إلى غير الرسميين إلى أمرين :

1 عدم انضباطهم في ملازمة التدريس: لأنهم لا أجر لهم، وبالتالي إذا أقررنا دروسهم على اختلالها اختل التعليم كله خصوصا أن أغلب المتطوعين يدرسون المرتبة الابتدائية، والخلل في هذه المرحلة عظيم جدا. وقد تنبه القائمون في تونس وقتها إلى ذلك فجعلوا للمتطوعين أجرا يقتطع من أجر الرسميين عند غيابهم بدون عذر، وجعلوا المواظبة مرجعا عند التساوي في الرتبة. والشيخ ابن عاشور يرى أن ذلك غير كاف وإنما يرى أن تجعل جراية[42] مناسبة ومباشرة للمتطوعين.

2 التساهل في قبول المتطوعين للتدريس: نشأت عن ذلك طبقات من التلاميذ قاصرة.

وأما الفساد الناجم عن تطوع الرسميين فإنهم أصلا مكلفون بدروسهم، والزائد ينقلب إلى التوسعة عليهم، وقد يعسر على الأستاذ أن يُعد خمسة دروس في اليوم.

والواقع أن ما يعيشه التعليم في الوقت الراهن هو شبيه بما ذكره الشيخ؛ حيث تجد الأستاذ يشغل عدة مناصب متنوعة؛ تجده أستاذا بالتعليم العالي وبالسلك الثانوي وخطيبا وواعظا ...إلخ فكيف لهذا المسكين الذي تفرقت قواه بين هذه المجالات الكثيرة والمتنوعة أن يعطي لكل ذي حق حقه، خصوصا إذا غابت المراقبة ولم يستحضر مراقبة الله عز وجل.

لا نقول بأنه يمتنع عليه ذلك؛ لكن قد يعسر عليه ضبط الجميع، وقد شاهدت بأم عيني من كان يتولى تلكم المناصب التي ذكرت، فعندما يحضر الدرس ويحاضر تجده شارد الذهن ولا يكاد يتذكر ما كلفنا به أو ما كنا بصدد الحديث عنه؛ بل أحيانا تأتيه مكالمة فتغير مجرى الدرس تماما.

السبب العاشر: التزام عدد مخصوص من المذهبين المالكي والحنفي: ويقصد بذلك أنه أثناء انتخاب المدرسين للتدريس بتونس كانوا ينتخبون بالتساوي؛ فإذا كان المسجد الأعظم به ثلاثون مدرسا فيرون أنه بالضرورة تقسيم هذا العدد بالتساوي؛ النصف الأول للمذهب المالكي والثاني للمذهب الحنفي، كما كان في ترتيب أحمد باشا، وذلك أدى إلى تأخر التعليم وفساده، لأنه كلما قل عدد

المنتخبون في مذهب زادت حظوظهم، وبذلك يضطر إلى اغتفار من ليس بأهل في الاختبار ويرسب من هو أهل من المذهب الآخر لكثرة المنتخبين (المالكية)وقد يؤثر هذا أيضا على المتعلمين لأحد المذهبين. ونعيش اليوم حالة مثل هذه في بلدنا الحبيب (مسألة الانتقاء)

السبب الحادي عشر: تفكير التلاميذ الكبير في تحصيل الشهادة وإغفال المقصد الأساس وهو الكمال العلمي: أي جعل الوظيفة هي المقصد الأصلي والتحصيل مقصد تبعي، وفساد ذلك عظيم، فإذا كانت هذه فكرة المتعلم كان تعليمه سطحيا. هذا الجري وراء الشهادة للحصول على الوظيفة يجعل التلاميذ يتهافتون لقطع ما يعترض سبيلهم من المراحل، ويبتهجون بإتقان ما خطط لهم من البرامج ظانين ذلك غاية الكمال ...ولذلك يخرجون بُعداء عن فكرة الإصلاح وفي إدراك محاسن الأحوال ومساوئها[43]حتى أصبحنا نسمع مؤخرا بأن هذا عصر الشهادات، والغريب في الأمر أنك تجد العديد من علمائنا الأجلاء الذين لهم باع طويل في العلم غير حاصلين حتى على البكالوريا، ومع ذلك فهم من يكونون السادة الدكاترة؛ وإذا حاضروا في محاضرة ظهر زيف شهادات أولئك. وليس هذا موطن ذكر أمثال هؤلاء العلماء الأجلاء.

واقترح الشيخ حلا لهذا وهو أن ترتب مراتب التعليم على سنوات، وأن لا يتساهل في الامتحانات، وأن يزرع في المتعلم أن يكون كاملا بذاته معرفيا.

السبب الثاني عشر: ضعف الملكات اللسانية أي القصور في اللغة وقد ذكر أن هذا السبب يمكن إرجاعه إلى السبب السابع وهو عُزُوُ التعليم عن العمل، إلا أنه أفرده بالذكر لأهميته، واعتبر أنه من أكبر الخلل أن يكون العالم الإسلامي الذي يدرس عمره العلوم الإسلامية لا يحسن التعبير بكلام عربي فصيح. وقد ساءت حالتنا اللغوية كثيرا قال الإمام الذهبي(748هـ) . رحمه الله . في كتابه الماتع زغل العلم: (اللغويون قد عدموا في زماننا، فتجد الفقيه لا يدري لغة الفقه، والمقرئ لا يدري لغة القرآن، والمحدث لا يعتني بلغة الحديث، فهذا تفريط وجهل، وينبغي الاعتناء بلغة الكتاب والسنة ليفهم الخطاب)[44] قلت إذا كان اللغويون قد عدموا في القرن الثامن الهجري يا إمام فما ذا عسانا نقول عن لغوي القرن الخامس عشر؟

والمنهج الذي يقترحه الطاهر بن عاشور لإصلاح هذا الخلل هو أن يعتمد المدرسون على التحدث باللغة العربية الفصحى، وأن نُعَود التلاميذ النطق بالعربية؛ بحيث لا يُقبل منهم التكلم مع شيوخهم بغيرها، وتجعل لهم تمرينات أسبوعية في الخطب العربية، ويكلفون بعد ذلك بإنشاء مقالات.

السبب الثالث عشر: عُزُوُ التعليم عما يفيد التلامذة اطلاعا على أحوال الأمم الماضية والحاضرة: أي أن المتخرج بالجامع الأعظم تجده في غفلة عما يروج في عصره من مستجدات وتطورات، فيتخرج التلميذ ضعيف البصيرة ضيق الفكر. فالمتعلم اليوم أصبح بحاجة إلى أن يعدد من ثقافته لأننا نريد من الفقيه أن يكون على بصيرة بالمستجدات لأننا في أمس الحاجة إلى ذلك؛ قال الدكتور التوفيق التضمين: (فإن الأجيال الصاعدة في حاجة إلى أسلحة العصر الجديد ومفاهيمه السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والآليات التي تمكنهم من الحصول على القدرات اللازمة لتحقيق تكيفهم مع المناخ الجديد بكل أبعاده ولكن دون التفريط في الهوية والقيم السامية)[45] وينبغي أن يمزج المتعلم بين المعارف الدينية والدنيوية لأن (المسألة التعليمية لها جناحان؛ الأول: هو التعليم الديني والجناح الثاني وهو التعليم الكوني "الدنيوي". والكارثة التي نحن فيها الآن هي أننا نحاول الطيران بجناح واحد)،[46] وقد تدارك الموقف وجبر الخلل فتم تأسيس مجموعة من الإصلاحات على رأسها إنشاء المدرسة الخلدونية سنة (1214هـ)، والغرض الذي من أجله أسست هو البحث بالطريقة العلمية عن الوسائل الموصلة لتوسيع نطاق المعارف خصوصا المعارف التي لم تكن بالجامع الأعظم.

ويمكن أن نضيف إلى ما ذكره الشيخ الطاهر بن عاشور من أسباب سببا آخر تعاني منه منظومتنا التربوية أثناء الإصلاح ألا وهو:

العودة الدائمة إلى نقطة الصفر: قال الدكتور الوكيلي وهو يتحدث عن المعيقات الأساسية لإصلاح المنظومة التربوية: (سنتناول ضروبا أخرى من مسببات الإعاقة، وفي مقدمتها بلا منازع ظاهرة العودة في كل مرة إلى نقطة الصفر، والبدء من جديد في إصلاح جديد أو ما يطلق عليه بلغة السياسة: غياب الاستمرارية في أداء الحكومات، وفي أداء وزارة التربية الوطنية المتغيرة عقب كل تغيير حكومي جديد.[47]

المبحث الثاني: أسباب تأخر التعليم التي تعود إلى فساد التآليف/المقرر. ومناهج إصلاحها عند الطاهر بن عاشور:

قد شملت عناية الشيخ ابن عاشور إصلاح الكتب الدراسية وأساليب التدريس ومعاهد التعليم[48] ففي هذا المبحث تحدث عن مسألة إصلاح التآليف والاهتمام بها لأننا نرتقب من إصلاح التعليم إصلاح المعلمين، قال:(لو وازن الناس بين إصلاح التآليف وإصلاح المعلم لرأوا أن إصلاح التآليف يصل بنا إلى غرضنا. وإن بقي المعلم على حاله فإنه مهما بلغ به الجمود لا يمكنه أن يحول بين الأفهام وبين ما في التآليف)[49] إذن فنحتاج إلى إصلاح التآليف ولو كان المعلمون صلحاء، لأن إصلاح التآليف وحده هو المرجو لإصلاح تلامذتنا حتى ننشئ منهم معلمين أكفاء للمستقبل. فالشيخ يرجع أسباب تأخر العلوم إلى الأسباب التي أدت إلى تأخر المسلمين عموما، وهناك أسباب خاصة؛ أي التي أدت إلى تأخر كل علم على حدة وأسباب تعم كل العلوم.

يرجع أصل أسباب تأخر العلوم إلى أصلين:

1 وجود مسائل لا حاجة إليها يطال بها التعليم. 2 إهمال مسائل وعلوم مهمة. وهما السببان الجوهريان، والسبب الأول هو سبب عام في تأخر العلوم، وقد تتفرع عنه أسباب أخرى.

المطلب الأول: الأسباب التي أدت إلى تأخر التآليف العائدة إلى: وجود مسائل لا حاجة إليها يطال بها العلم:

السبب الأول: الوقوف الفجائي الذي عرض للعلوم: فوقف كل علم عند الحد الذي تركه المتقدمون. وعلى سبيل المثال لا الحصر ما حصل لعلم أصول الفقه إذ أن كل من كتب بعد الإمام الجويني (ت478هـ) وتلميذه الإمام الغزالي (ت 505هـ) فقد كان عالة عليهما في هذا العلم؛ من حيث التصنيف والمباحث والتعريفات، فإلى حدود القرن الثامن لم توجد إلا شروحات أو اختصارات لما كتباه، فأصبح ما كتباه بمثابة دليل لمن جاء بعدهما، وقد أشار ابن خلدون إلى هذا في مقدمته قال: (وكان من أحسن ما كتب فيه المتكلّمون كتاب البرهان لإمام الحرمين والمستصفى للغزاليّ وهما من الأشعريّة وكتاب العهد لعبد الجبّار وشرحه المعتمد لأبي الحسين البصريّ وهما من المعتزلة. وكانت الأربعة قواعد هذا الفنّ وأركانه)[50] فالشيخ ابن عاشور يرى أنه ينبغي ألا نقف عند ما وصل إليه أسلافنا.

السبب الثاني: تداخل العلوم وربط بعضها ببعض: فأوجب ذلك ضيقا في العلوم وكثرة الخلاف، ولذلك يقترح ابن عاشور . رحمه الله . ألا ندخل مسائل علم آخر أثناء شرحنا للدروس المقررة على التلاميذ لكي لا يختلط عليهم الأمر.

السبب الثالث: انشغال المؤلفين المتأخرين بالبحث في ألفاظ المؤلفين: عكفوا على البحث في ألفاظ الذين سبقوهم من أجل تأييد المذاهب والآراء لباعث التعصب والتحزب، وهذا هو الفساد المبين الذي ظهر ابتداء في الفقه وفي العقيدة. ولا يقصد بذلك عدم أهمية تحرير وضبط المصطلحات.

السبب الرابع: طموح النفوس إلى المشاركة في جميع العلوم: مما جعل التأليف خليطا من المسائل. فالشيخ ابن عاشور يرى أنه لإصلاح هذا الداء ينبغي أن يختص كل مؤلف في مجال معين حتى ينبغ فيه، لأن ذلك سينتج عنه الوصول إلى أمور جديدة لم يسبق إليها؛ أما أن نجده اليوم أصوليا وغدا فلكيا أو رياضيا ...فإنه سيقتصر من كل علم على النزر اليسير الذي لا يؤهله لأن يبتكر وينتقد. كما أن الإحاطة بكل العلوم ضرب من المحال قال الماوردي(ت450هـ) . رحمه الله: (واعلم أن كل العلوم شريفة، ولكل علم منها فضيلة، والإحاطة بجميعها محال.)[51]

السبب الخامس: أن العلم أصبح أوسع من الوقت: وهذا السبب ناشئ عن السبب الذي قبله؛ فصار الناس يقتنعون من العلم بالاسم فقط؛ فتجد المؤلف يسرد كل معارفه العلمية المتنوعة في كتابه، حتى لتسأل نفسك أحيانا في أي مجال ألف هذا الكتاب؟

فالوقت لا يكفي للتبحر في كل العلوم، وقد ساق الماوردي ـ رحمه الله ـ جملة من أقوال العلماء تدل على هذا المعنى قال: (وقال بعض العلماء: المتعمق في العلم كالسابح في البحر ليس يرى أرضا، ولا يعرف طولا ولا عرضا. وقيل لحماد الراوية: أما تشبع من هذه العلوم؟ فقال: استفرغنا فيها المجهود، فلم نبلغ منها المحدود)[52] وهذه النقطة التي ذكرها الشيخ واقعة في التعليم الجامعي بالضبط إذ يكتفي الطالب بدراسة مداخيل العلوم فقط؛ بل وفي بعض الأحيان يبقى في التعريف بمصطلحات المجزوءة.

السبب السادس: الإعجاب بآراء المتقدمين كيفما كانت وتنزيهها عن الخطأ: والذي ينبغي أن نفهمه هو أن القواعد التي أسسها لنا السلف لم تؤسس لتستعبد أفكارنا بل لتخدمها.

السبب السابع: التقليد الأعمى للمتقدمين: وهو ناتج عن الأسباب المتقدمة؛ لذلك فالشيخ يرى بأن لكل عصر حاله، ولكل مجتمع خصوصياته. فليس بالضرورة أن نبقى حبيسي ما وجدنا عليه السلف؛ بل ينبغي أن نتم ما بدؤوا ونبتكر كما ابتكروا. فالتقليد إذن مرفوض قال محمد أحمد إسماعيل: (إن "الترقيع" و"التقليد" مرفوضان في طريق الإصلاح الإسلامي)[53]

السبب الثامن: سلب الحرية عن العلوم: فأصبح المبتكر عرضة للنكاية أو الاضطهاد، فمتى تصلح العلوم والتعليم إذا منعنا النقد والتهذيب وإصلاح ما أخطأ فيه المتقدمون. وهذا الأمر وقع لمجموعة من العلماء؛ فها هو ذا الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى عندما ألف كتابه الموافقات في مقاصد الشريعة، وتوسع في هذا العلم كثيرا ووجه بالنقد، قال في هذا الصدد:(فإن عارضك دون هذا الكتاب عارض الإنكار، وعمي عنك وجه الاختراع فيه والابتكار وغر الظان أنه شيء ما سمع بمثله ولا ألف في العلوم الشرعية الأصلية أو الفرعية ما نسج على منواله أو شكل بشكله... فلا تلتفت إلى الإشكال دون اختبار، ولا ترم بمظنة الفائدة على غير اعتبار)54 والأمر نفسه وقع لابن خلدون عندما ألف المقدمة.

السبب التاسع: انقطاع العمل عن التعليم: محا روح التعليم من الأذهان، فصير العلم قواعد واصطلاحات لا يهتم فيها بعمل، إذن فلابد أن نحرص كل الحرص على التطبيق. ولأمر ما ألف الخطيب البغدادي كتابا عنونه ب:" اقتضاء العلم العمل" وقال في هذا الباب :(ثم إني موصيك يا طالب العلم بإخلاص النية في طلبه وإجهاد النفس على العمل بموجبه، فإن العلم شجرة والعمل ثمرة، وليس يعد عالما من لم يكن بعلمه عالما)[55]

السبب العاشر: انصباغ سائر المسلمين بالطرائق الصوفية: وذلك بث في نفوسهم الرضا بالموجود وعوّد النفوس على قَبول ما لا يفهم والاقتناع به، واحتقار سائر العلوم إلا علوم المعرفة بالله وعلم التصوف.

السبب الحادي عشر: إهمال المراقبة للعلوم: فطمع في التأليف ناس لا قدرة لهم على الوفاء بحقوق ذلك ونقلت كتبهم القاصرة إلى حلق التعليم وأفسدت العلوم وطالبيها. وعليه فينبغي أن تكون لجنة مراقبة التآليف، فليس كل ما ألف صالح للنشر فكيف يصلح للتدريس؟ وأقول هنا بأنه ينبغي التروي واتخاذ الوقت الكافي في تغيير أي مقرر، وألا نتسرع في ذلك، فما الفائدة إذا من تغيير مقرر جيد بمقرر دونه في المستوى ومليء بالأخطاء، قال الدكتور محمد عزيز الوكيلي وهو يصف حالة الكتاب المدرسي المغربي:(إن الكتاب المدرسي لم يبرح مكانه أو يكاد لا يبرحه؛ بالرغم من التدابير الجديدة التي أدخلت على طرق إعداده وأساليب التنافس على الإبداع في تقديم حمولاته المعرفية وكفاياته ...إننا ما زلنا نعاين نفس الخلل في تفضيل كتاب على آخر، ونفس الحيرة في تغليب الخصوصية الثقافية والجهوية والإقليمية على النزعة الوطنية)[56]

السبب الثاني عشر: التهاون بعدة علوم نافعة: فاحتقروها؛ إما ظنا منهم أنها ليست نافعة أو لعجز أقلامهم عن إدراكها. ولذلك (فقد ظل النظام التعليمي يحمل في ذاته تناقضات تمنعه من التفتح على آفاق جديدة طالما بقي أسير بنايته العتيقة)[57]

السبب الثالث عشر: فساد التأليف أفسد العلوم التي تدرس: هنا يرى الشيخ أنه أثناء صوغ المقررات التي نود أن ندرسها للمتعلمين ينبغي أن نستحضر الفئة المستهدفة. قال الماوردي في هذا الصدد: (واعلم أن للعلوم أوائل تؤدي إلى أواخرها، ومداخل تفضي إلى حقائقها. فليبتدئ طالب العلم بأوائلها لينتهي إلى أواخرها، وبمداخلها لتفضي إلى حقائقها. ولا يطلب الآخر قبل الأول، ولا الحقيقة قبل المدخل)[58]

السبب الرابع عشر: الاحتجاج للاصطلاح في التقديم بقولهم: "إن لكل أحد أن يصطلح على ما شاء ما شاء": والضرر إنما جاء من اختلاف الاصطلاح في اللفظ الواحد. وفي هذا إشارة إلى ضبط مصطلحات العلوم لأنها هي مفاتيحها. فالمصطلح إذا أصبح عبارة عن قناة تمرر من خلالها تصورات أصحابها بطريقة تعسفية، كما أصبحت تمرر من خطاب إلى خطاب آخر دون تأشيرة مرور.[59] وقد صدق قول الشاهد البوشيخي ـ حفظه الله ـ حين قال: "فالحرب المصطلحية الآن أخطر من الحرب النووية والمستهدف الأول فيها الإسلام "[60]

السبب الخامس عشر: سوء التفاهم الذي كان بين المتأخرين في خلافاتهم وسرعتهم إلى نبز المخالفين وإلى إشاعة التشنيع والسباب.

المطلب الثاني: النظر في أسباب تأخر العلوم المتداولة على وجه الخصوص:

قد تحدث هنا عن أسباب تأخر كل علم ـ في ذاته ـ من العلوم الإسلامية المتداولة وهو بهذا الذي صنعه يود أن يكون عمله نبراسا تضيء به مسالك ما ينتحيه الأساتذة وما يهجرونه مما يمر بهم في أوقات المطالعة والتحرير، وليكون ذلك أيضا تمهيدا لتأليف كتب قيمة في العلوم[61]

1 **أسباب تأخر علم التفسير:**[62] السبب الأول: الولع بالتوقيف والنقل اتقاء الغلط الذي عظموا أمره في القرآن، حتى قيل خطؤه كفر، أي ما ينقل عن السلف والمفسرين الأوائل فهو الحق فقط. السبب الثاني: الضعف في اللغة والبلاغة، واستشهد بمجموعة من الأقوال، قال الزمخشري: " ثم إن أملأ العلوم بما يعمر القرائح وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح من غرائب نكت يلطف مسلكها ومستودعات أسرار يدق مسلكها علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم.." [63] السبب الثالث: الضعف في علوم يظنونها بعيدة عن القرآن، مثل التاريخ وفلسفة العمران والأديان والسياسة. السبب الرابع: خروج بعض التفاسير عن ذكر العلوم التي لها تعلق بفهم الآية إلى مسائل من علوم متنوعة ضعيفة المناسبة.

الحل: لإصلاح هذا العلم: أن تفسر التراكيب القرآنية جريا على تبيين الكلمات بحسب استعمال اللغة العربية ثم أخذ المعاني من دلالة الألفاظ والتراكيب، ونقل ما يؤثر عن السلف والخلف مما ليس مجافيا للأصول، وتجنب الاستطراد.

أسباب تأخر علم الحديث: [64] واعتبره بأنه كان أتقن العلوم الإسلامية إحكاما، وكتبه أسلم الكتب من الإخلال، وكانت أسباب الفساد في علم الحديث بذلك قليلة لشدة يقظة أهله، لكن حصل منها شيئان: 1 اغترار الناس بحسب أحوال الرواة من غير نقد فوقعوا في مصيبة الذهول إذ سلموا من مصيبة التدليس والغرور. 2/ قصور الهمم عن مزاولة علم الحديث مزاولة نقد وضبط. وهذان السببان أثرا في الفقه والعقيدة وآداب الدين.

الحل: أن يسد باب التسامح لإيداع الأحاديث الضعيفة في كتب الحديث ولو كانت في الفضائل، وأن يطرح الاشتغال بضبط أحوال الرواة بعدما محص حفاظ صحيح الحديث من عليله.

أسباب تأخر علم الفقه:

1/ التعصب للمذاهب والعكوف على كلام إمام المذهب واستنباط الحكم منه بالالتزام أو نحوه، 2/ إبطال النظر في الترجيح والتعليل، ورمي من يسلك ذلك بأنه يريد إحداث مذهب جديد، 3/ عدم العناية بجمع النظائر والقواعد للفروع المتحدة. 4/ إهمال النظر إلى مقاصد الشريعة من أحكامها، ولقد صرح أئمة علمائنا بأهمية المقاصد كالإمام الشاطبي وعلال الفاسي وغيرهم ـ عليهم

رحمة الله .5/ ضعف الفقهاء في علوم يُؤَثِّر الضعف فيها قصورا عند الاستنباط (الحديث، اللغة، أصول الفقه، علم الاجتماع) 6/ الإعراض عن التآليف المفيدة المهذبة الواضحة العبارة، والالتجاء إلى ما فيه كثرة الترددات. 7/ الاختلاف في أصول الاستنباط. 8/ صرفهم جل همهم إلى فقه العبادات وتقصيرهم في فقه المعاملات والجوانب الأخرى.

فاتضح إذن أن المتأخرين من الفقهاء أفسدوا الفقه [65] فأصبح مفهوم الفقه ضيقا معناً ومبنىً؛ قال الإمام الجرجاني (ت818هـ) الحنفي: (الفقه هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية)[66]. وقد ذكر الإمام الزركشي (ت794هـ) – الشافعي– أن هذا التعريف أحسن تعريف للفقه، وقد نسبه إلى الإمام البيضاوي (ت685هـ) قال :(وأحسن ما قيل في تعريف الفقه: هو تعريف البيضاوي...لسلامته من الاعتراضات الواردة عليه)[67] يتضح إذن أن موضوع هذا العلم هو القواعد العملية، أي العبادات والمعاملات بيد أن الناظر في الوحي بشقيه يجد مفهوم الفقه يشمل القواعد الشرعية بجميع أنواعها؛ اعتقا دية كانت أو أخلاقية أو عملية فهذا المصطلح إذن أصابه ما أصاب مجموعة من المصطلحات من التضييق والتقزيم والتشويه[68]

أسباب تأخر علم أصول الفقه[69]:

1/ توسيع العلم بإدخال ما لا يحتاج إليه فيه؛ فأدخلوا فيه علم المنطق واللغة والنحو والكلام والاشتقاق... 2/ أن قواعد الأصول دونت بعد أن دون الفقه فوجدوا بين قواعده وبين فروع الفقه تعارضا. 3/ تضمن العلم مسائل لا طائل تحتها وهو ما عبر عنه الإمام الشاطبي بأن الخوض في أمثالها عبث، قال: (كل مسألة لا ينبني عليها عمل؛ فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي)[70] 4/ الغفلة عن مقاصد الشريعة فلم يدونوها في الأصول. 5/ أن غلق باب الاجتهاد وتحجير النظر حط من قيمة علم الأصول عند طالبيه.

أسباب تأخر علم الكلام[71]:

1/ الخلاف في الاصطلاحات والصفات وتحديدها وكثرة الخلاف اللفظي. 2/ الغلو في التنزيه، وقد ظنوا به تعظيم الله تعالى بما لم يصف به نفسه. 3/ قول ما لا يعقل واعتقاده. 4/ التنابز وإلزام لوازم المذهب وذلك أوجب إباية الرجوع إلى الحق. 5/ إدخال أشياء في التوحيد ليست منه.

أسباب تأخر علوم اللغة العربية:

وقف الشيخ ابن عاشور وقفة خاصة على قضية اللغة العربية وعلومها، ملفتا النظر إلى ما يجب لها من حق العناية دراسة ونقدا وتوجيها وإصلاحا، فهي (ترتقي بارتقاء الأمة الناطقة بها وتنحط بانحطاطها، وتتسع بمقدار سعة العقول، فإن اللغة ما وضعت إلا للتعبير عن المراد، وتصوير الفكر الإنساني)[72]

أول من أفسد على الناس لسانهم طوائف:

1 بعض المؤلفين الذين تلقوا اللسان تلقيا علميا صناعيا فلما أَلَّفُوا ترجموا عباراتهم العجمية إلى مفردات عربية. 2 الأدباء والشعراء المولدون الذين أفسدوا المجاز والاستعارة وغفلوا عن المراد منها. 3 الذين فسروا مفردات القرآن بقوة معنى الكلام.

ثم بعد ذلك حصر أسباب فساد اللغة في ثلاثة أسباب جوهرية:

السبب الأول: إشراف الأسلوب العربي على الاضمحلال بتقادم العصور. السبب الثاني: سوء التعليم فيها بسوء فهم المفردات. السبب الثالث: البعد عن حفظ كلام العرب من منظوم ومنثور.

وأسباب مكملة موجبة لضمور اللغة وهي:

1/ إخلال القواميس اللغوية والغفلة عن التفقه فيها. 2/ صرف العناية عن تحقيق مسميات الأسماء.

سبل الإصلاح: قال :(لا عدة لنا اليوم في الفصاحة إلا القرآن، وناهيك به عدة)[73]كما يقترح الرجوع إلى الكتب القديمة العهد لأنها أكبر مساعد على دوام حياة هاته اللغة. ولا طريق إلى إحياء لسان وتعلمه إلا مخالطة أهله أو كلام أهله إن لم تكن المخالطة،

مع الاحتراز من الدخيل. وأن تصرف أسماع التلاميذ عن الكتب التي فيها لغة ركيكة، وإنشاء مدرسة خاصة لتعليم اللغة يدخلها التلميذ في صغر سنه.

أسباب تأخر علم المنطق: 1/: سوء الترجمة والغفلة عن التطبيق على أسلوب العربية التي نقل لأجلها لأنه علم لساني أيضا لا عقلي بحت.2/: فراغ بعض مسائله وشغورها من التمرين.

أسباب تأخر علم التاريخ: 1/أن هذا العلم كان قاصرا على سرد الوقائع عريا عن النظر في الغاية المقصودة وهي الاستعانة به في السياسة. 2/ الأسطورات القديمة وهي أصل كل تاريخ. 3/ التعصبات والأغراض ونصب المؤرخ نفسه حكما. 4/ سوء المأخذ وفساد الاستنتاج. 5/ ذلكم الوهم القديم، وهو ظنُّ أن العلم الذي ليست فيه مسائل كلية، . وهي القواعد . لا طائل في دراسته.

أسباب تأخر العلوم الفلسفية والرياضية: لخص ذلك في بقاء هذه العلوم على ما كانت عليه عند اليونان. والخلاصة أن البحث في إصلاح العلوم كما قال الشيخ بحث عصيب، وأن المتكلم فيه لا يخرج منه وهو في جميعه مصيب.

المبحث الثالث: أسباب تأخر التعليم التي تعود إلى فساد المعلمين ومناهج إصلاحها عند الطاهر بن عاشور:

إن الأسباب الثلاثة متداخلة (النظام، التآليف، المعلمين) ولذلك سيكون الكلام هنا مختصرا شيئا ما، خصوصا وأن الشيخ ابن عاشور لم يفصل فيه كما فصل في غيره، ولم يذكر الأسباب بوضوح كما في المبحثين السابقين، وإنما يمكن استخراجها بعد التأمل في مفهوم الكلام بعد قراءة منطوقه، وعليه إذن فهو يرجع تلكم الأسباب إلى ما يلي:

1/ كراهيتهم النظام والقوانين: إصلاح المعلمين ركن عظيم من إصلاح التعليم، فهو يدعو إلى إعانة المعلمين في وضع قواعد تساعدهم في إنجاز المهمة المنوطة بهم، وتنبيه من وقع في الخطأ دون أن نهين كرامته؛ قال: (فلا ندع الأساتذة في خلال هذا الزمان يعبثون بالقواعد، بل نستعين لحفظ المبادئ المراد إجراؤها بعقول النبهاء منهم، وبتعريف الذاهلين بشيء من أحوالهم الموقعة في إخلال التعليم عساهم أن ينبذوها ...هذه نصيحتي لهم لسمو مقدارهم)[74] فتجد المعلم يكره النظام ويراه مقيدا لحريته، بل قد يكون غير ملم بالقوانين التي تؤطره قال الشيخ ابن عاشور :(إن الفساد الأكبر الذي يلقاه مصلح التعليم في المعلمين هو كراهية النظام وكراهية القوانين وسوء الإلمام بوجوب العناية بالتعليم)[75]

فالشيخ يرى أن يضبط المعلم بقواعد تنظم العملية التعليمية التعلمية، والضبط يقصد منه الأمن على التعليم من عبث العابثين وخديعة المرائين، فالضبط لا يزيد المعلم الكفء إلا تعضيدا لمواهبه.

ولا يقصد بالضبط أن يسلب المعلم حرية نقد النظام والقواعد التي تود الدولة أن يطبقها، بل يدعوه أن يكون مشاركا في صوغ هذه القواعد وتقديم ملاحظاته بعد تنفيذها، فما يحتاج إلى تعديل يعدل وما يحتاج إلى زيادة يضاف وهكذا يسجل كل ملاحظاته ويقدمها للجنة النظر.

2/ تقديس المعلمين لطريقة السلف في التدريس، وهي طريقة الإلقاء[76] وجعلها وحيدة: فهم لا يرون التعليم إلا كيفية واحدة هي التي تعارفوها؛ وحجتهم في ذلك أن بها وصل السلف إلى ما وصلوا إليه من رقي وازدهار، ناسين أو متناسين أن الظروف تختلف. فبالرغم من أهمية هذه الطريقة إلا أ ن الشيخ يدمها من وجوه؛ فهي تلجئ المدرس إلى التملي من أقوال المؤلفين ونقل عباراتهم، وينتج عن هذا التركيز على القشور بدل اللب. كما أن من عيوبها أنها تلجئ الأساتذة إلى تحاشي تلقي أسئلة التلاميذ، لأن بوضع الأسئلة تتشتت عليه الأفكار.

فطريقة النقل تحسن .كما ذكر الشيخ ابن عاشور . عند من لا يتكلفها بل يأتي بها عفوا، أو يتكلفها أول الأمر تكلفا خفيفا حتى يعتادها.

كما يدعوا الشيخ المدرسين أن يميزوا في الطريقة المستخدمة من أجل إيصال الدرس إلى المتعلمين، ويراعوا مراتب الأفكار واستعدادهم لقبول ما يلقى إليهم؛ فطريقة النقل تحسن إن كانت بالشروط المذكورة مع غير المبتدئين؛ قال الأستاذ الدكتور بلقاسم الغالي في هذا الصدد: (كما حث المدرسين على نقد الأساليب والمناهج الدراسية واختيار أحسنها أثناء الدرس ومراعاة تربية الملكة بدل شحن العقل)[77]

والذي ينبغي التنبيه عليه أن على الأستاذ أن ينوع في طرق تدريسه ويعتمد على الوسائل الحديثة والتكنولوجيا في تقديم درسه قال الدكتور التوفيق التضمين: (المطلوب من كل مدرس أو مشتغل بالتربية والتعليم سواء كان من العاملين بالقسم، أو إداريا أن يتوفر على الحد الأدنى من امتلاك ناصية تكنولوجيا التواصل والإعلام الحديثة، حتى يتمكن من عنصر جديد يساعده على تطوير أدائه الإداري)[78].

3/ إكثار المعلمين من المسائل السطحية في دروسهم: وهذا السبب راجع إلى الذي قبله؛ فهم لما قدسوا الطريقة القديمة تأليفا وتدريسا، فاعتادوا التسليم واكتفوا بنقل الأقوال وذكر الخلافات في المسائل من غير تمييز بين صحيح ومرجوح، ولا باعتبار ما ينبغي إلقاؤه للتلاميذ وما لا ينبغي.

4/ أن كثيرا من المشتغلين بالتعليم يلجئون إليه قبل تلقي صناعة التعليم: وهذا لا يخفى خطره وعظم ضرره على الفئة المتعلمة، ففي كل المجالات والصناعات ما لم يتلقى الإنسان تكوينا وتعليما مسبقا بالصناعة التي يود تعاطيها فإنه قد يخطئ من حيث يريد أن يصيب، وفي أحسن الأحول قد يفوت على رب العمل سلعة كثيرة قبل أن يصنع ما يود صناعته من قماش، أو من آنية ...إلخ. فما بالك إذا تعلق الأمر بصناعة العقول؟ فمن السهل أن يتدارك رب العمل السلعة التي ضاعت منه بسبب تقصير هذا الصانع الجديد، لكن يصعب أن تتدارك الأمة خطأ المتعلم بهذه السهولة.

ومن أجل هذا وذاك فيجب أن نقوم بإعداد المعلم[79] قال الشيخ ابن عاشور:(فمن الواجب أن لا ينتخب للتعليم إلا من تمرس به وعرف مراتب الأفكار ليعلم التلامذة كيف ينتبهون إلى دروسهم ويفهمونها بدل من الضجر ...ولذلك يجب أن تدرس صناعة التعليم قبل انتصاب المدرس للتدريس)[80]

وقد تحدث عن مراتب المدرسين وحصرها في خمسة:

1 النحرير الذي يميز الصحيح من الفاسد بنقد وفهم مصيب مع التضلع في الكتب التي لا تدرس من أصول العلوم، وهو قليل بالجامع. 2المتمرن بكتب التدريس الواقف على إصلاحاتها المقتدر على تدريس المهم منها بالفهم والإفهام على ما هي عليه. 3 نقلة لما في الكتب، ينقلون ما يحتطبونه بالليل ليأتوا به صباحا، وهؤلاء أتعب خلق الله عيشا وأقلهم تدريسا. 4أناس يفهمون ويدرسون ولكنهم لا يميزون في ذلك الصحيح من الفاسد. 5 طائفة كثيرة دأبها صراح الخطأ والستر على العيب بغطاء.[81]

5/ سوء أخلاق بعض المعلمين: يجعل الشيخ الطاهر بن عاشور هذا من بين أسباب تأخر التعليم، وهذا صحيح إذ أن تكبر بعض الأساتذة الظاهر على ملامحهم الخارجية؛ من لباس ومشية وكلام، يكون سببا في حجب علمهم عن تلامذتهم فيحول ذلك دون الاستفادة من علمه. فينبغي أن يكوم المعلم متخلقا قال الإمام الآجوري (ت 360هـ) . رحمه الله . وهو يعدد أخلاق العالم بأنه: (لا مداهن، ولا مشاحن ولا مختال، ولا حسود، ولا حقود، ولا سفيه، ولا جاف، ولا فظ، ولا غليظ، ولا طعان، ولا لعان، ولا مغتاب، ولا سباب...)[82]ويجب على معلم صبيان المسلمين أن ينصحهم ويبذل المجهود في ذلك[83] والمصيبة كل المصيبة في كون هذا الأستاذ هو قدوة المتعلمين، فكيف إن خرج لنا هذا المربي جيلا مثله؟ وبعد سنوات قلائل يتولون المناصب بتلك الأفكار؟ فالخطر إذن عظيم، ولذلك نبه كثير من العلماء على الاحتياط من زلة العالم؛ (قد قيل في منثور الحكم: إن زلة العالم كالسفينة تغرق ويغرق معها خلق كثير، وقيل لعيسى ابن مريم – عليه السلام – من أشد الناس فتنة؟ قال: زلة العالم إذا زل زل بزلته عالم كثير.)[84]

كما ناقش الشيخ مسألة هندام المدرس فهو يرى أن يكون وسطا لا لباس الخيلاء ولا لباس تقشف.

6/ الضغينة المتواجدة بين بعض الأساتذة: وهذا السبب له تعلق بالذي قبله؛ فمن سوء الأخلاق أن تكون حسابات شخصية بين أستاذ وأستاذ آخر، سواء في نفس المادة أو في غيرها، فينقل هذا إلى المتعلمين، فهذا يشوه سمعة هذا ويحقره أمام المتعلمين، والآخر يفعل نفس الشيء؛ وهذا لا ينبغي أن يكون (فسلامة الصدر مطلب شرعي لكل مسلم وبخاصة إذا كان من أهل العلم الذين يقتدى بهم)[85]

لذلك فالشيخ يرى أنه لإصلاح هذا الخلل يجب على المدرسين أن يتحلوا بالأخلاق الفاضلة، وأن ينقلوا إلى المتعلمين العلم النافع بدل نقل الانطباعات الشخصية اتجاه بعض الأساتذة. ويدعوا المعلمين إلى أن يتحدوا في ما بينهم من أجل رسم طريق الإصلاح ونبد الخمول.

7/ التمويه في إظهار الفوز في المناظرات العلمية: قال الشيخ:(قد كانت صفة منتشرة بين طبقات العلماء من قديم عندما صار العلم صناعة وصار العالم يسعى لينال الحظوة عند ولاة الأمور)[86] ولا يخفى ما في هذا من ضرر على التعليم، فإذا كانت النية غير صالحة وغير صادقة فلا ينتفع بعلم العالم إلا قليلا، فما بالك إذا أضيف لذلك تحقير بعضهم وتشويه صورته أمام المتعلمين والعوام والمسئولين؟ وعليه فينبغي أن يخلص النية في العلم (وليحذر أن يطلبه لمراء أو رياء فإن المماري به مهجور لا ينتفع، والمرائي به محقور لا يرتفع.)[87]

8/علة تقديسهم للتآليف والمعلومات القديمة: فارتسم في عقولهم أنها قصارى ما تبلغه عقول البشر، وأن نهاية همة من بعدهم أن يفهم كلامهم [88] فنتج عن هذا تقاعس المعلمين والاكتفاء بالموجود، وماتت ملكة النقد في المعلم والمتعلم بالتبع. فهو يرى بأن الأقدمين نقدرهم لكن لا نعتقد فيهم العظمة، لأنهم يقرؤون ما نقرأ ويفهمون كما نفهم، ولا ينكر أنهم تفننوا في العلوم وقعدوا القواعد وأتوا في الزمن الوجيز بالمطلب العزيز، فهم غرسوا لننمي وأسسوا لنشيد وابتدءوا لنزيد.

9/التساهل في الامتحانات وتقديم الشهادات: وهذا من بين أهم الأسباب التي أدت إلى تأخر التعليم، وتولي من ليس أهلا له؛ فينبغي إذن لنصلح هذا أن لا تأخذ المسئولين رأفة ولا رحمة في تقديم الشواهد، وأثناء الامتحانات أيضا. فهذه الرحمة محلها قبل المبارة؛ بأن يعطى المتعلم حقه وإرشاده لطريق التحصيل.

كما يدعوا إلى أن تعدد مواد الامتحانات حتى يميز الغث من السمين وينتفي ما يسمى بالحظ. وحتى لا يكون الممتحن .كما سماه الشيخ . إنسانا في بعض العلوم وبهيمة في الأخرى. وينبغي على الذي يقوم بامتحان الذين يودون الحصول على الشهادة أن يميز بين ما هو أصلي في العلم فيقدمه وما هو تبعي فيؤخره، ويتفرع عن هذا السبب سبب آخر وهو:

10/ سوء يقظة المراقبين: أي الذين يتولون حراسة التلاميذ وقت الامتحان، فتجدهم قليلي العدد مقارنة مع ذلكم الجيش العرمرم من الممتحنين، فتكثر ظاهرة الغش. والشيخ ابن عاشور رحمه الله رغم تقديمه لهذه الأفكار الإصلاحية للمعلمين، سواء في عصره أو في من سيأتي بعده . فهو موقن بأنه هناك من لا يقبل النصح وهذه الأفكار.

الخاتمة:

وعموما فهذا ما يسر الله تعالى تحريره في هذا البحث المعنون ب: "إصلاح مناهج التعليم عند الطاهر بن عاشور من خلال كتابه أليس الصبح بقريب ..." وقد حاولت جاهدا أن ألامس أهم جوانبه والاطلاع على أكثر من مصدر في المسألة الواحدة، وقد توصلت إلى نتائج مهمة من بينها:

1) أن الشيخ الطاهر بن عاشور يعتبر علامة مميّزة في تاريخ العلم في تونس، وسيبقى علما من أعلام تونس والأمة الإسلامية، طبع قرنا كاملا بعطاء علمي وفكري غزير، ساهم به في ترسيخ الفكر الديني الإصلاحي المعتمد على العقل وعلى خدمة الأمة الإسلامية في حاضرها وماضيها، في مجموعة من المجالات، وعلى رأسها المجال التعليمي.
2) أنه لإصلاح التعليم لابد من تضافر الجهود بين جميع المسئولين التربويين وغير التربويين.
3) أن من بين أساليب إصلاح التعليم إعادة النظر في عناصر ثلاثة أساسية، وهي النظام والمقررات الدراسية والمعلمين؛ ففي الجانب التنظيمي ينبغي ضبط التعليم وأن لا يكون التسيب، وألا تسلب العلوم والتعليم حرية النقد البناء ...وأما في المقررات، فينبغي أن يراعى فيها الفئة المستهدفة وأن نركز على اللب لا القشور، وأن يكون الغرض من العلم العمل به ....وأما لإصلاح المعلمين فينبغي إعادة النظر في تكوينهم.

هذا ومن الجدير بالذكر أن في هذا البحث – المتواضع – اختصارا كبيرا؛ إذ إن كل مبحث بله كل مطلب منه يصلح أن يكون بحثا مستقلا، وأرجوا من العلي القدير السميع المجيب أن يهيئ لي من أمري رشدا، ومن وقتي متسعا حتى أطور هذا البحث في المستقبل العاجل إنه ولي ذلك والقادر عليه. كما لا يفوتني في هذا المقام أن أعتذر للقارئ الكريم عما يكون في هذا البحث من هفوات وأخطاء، فإذا مر بها فرجاؤنا منه أن يتلمس لها عذرا وأن يصححها وتلك شيمة الكرام. والله سبحانه وتعالى أسال أن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم وأن ينفع به جامعه وكاتبه وسامعه وقارئه والناظر فيه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم أمين والحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

1 كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون للعلامة مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة 35/1
2 أبجديات البحث في العلوم الشرعية محاولة في التأصيل المنهجي للدكتور فريد الأنصاري ص:81
3 نفسه ص:119
4 الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم للدكتور يوسف القرضاوي ص:77
5 نفسه ص:83
6 التوضيح والبيان لشجرة الإيمان. أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي. ص 41
7 إشكالية المصطلح في التراث النقدي العربي للدكتور يوسف الفهري ص:9.
8 كتاب العين. للخليل الفراهدي:3/ 177.
9 جمهرة اللغة. لابن دريد الأزدي 1 /542.
10 لسان العرب لابن منظور. 2/ 516-517
11 التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور 885/1
12 نفسه 284/1
13 جمهرة اللغة لابن دريد 498/1
14 مقاييس اللغة لابن فارس 361/5
15 علم مناهج التربية ـ الأسس ـ العناصر ـ التطبيقات. للدكتور فؤاد محمد موسى. ص:23

16 انظر مثلا: إسلامية المعرفة مجلة الفكر الإسلامي المعاصر ص: 5. ومعجم مصطلحات التربية لفظا واصطلاحا. لفاروق عبده فلية وأحمد عبد الفتاح الزكي ص: 238.

17 مقاييس اللغة لابن فارس 4 /109 . 110

18 الفروق اللغوية للعسكري ص:82

19 التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ص:102.

20 معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي. ص:64

21 من قضايا التربية الدينية في المجتمع الإسلامي كمال الدين عبد الغني المرسي ص: 15

22 مناهج التربية أسسها وتطبيقاتها. على أحمد مدكورص:14.

23 انظر الأعلام للزركلي 174/6 . 175. ومقدمة التحرير والتنوير. وفتوى الإمام الطاهر بن عاشور: ص:11 . 14. والشيخ محمد الطاهر بن عاشور حياته وعصره.

24 مقدمة التحرير والتنوير.

25 أليس الصبح بقريب. ص: 5

26 نفسه ص: 13

27 تفسير مقاتل بن سليمان 293/2

28 أليس الصبح بقريب ص 228

29 ملاحظة: هذا الفصل سيكون خال من الإحالات لأن أغلب ما سيذكر مأخوذ من كتاب أليس الصبح بقريب.

30 أليس الصبح بقريب ص: 129

31 نفسه ص: 228

32 الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره للدكتور بلقاسم الغالي ص 189

33 من قضايا التربية الدينية في المجتمع الإسلامي كمال الدين عبد الغني المرسي ص: 177

34 أليس الصبح بقريب. ص113

35 نفسه ص :113

36 نفسه. ص:114

37 نظريات التعلم دراسة مقارنة الدكتور علي حسين حجاج ص: 286.

38 قضايا الإصلاح والتجديد فتحي مكاوي. ص569/568

39 اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي ص: 19.

40 نفسه. ص: 55.

41 من قضايا التربية الدينية في المجتمع الإسلامي كمال الدين عبد الغني المرسي ص:140

42 أي: راتب يتقاضاه المتطوع.

43 الإمام الشيخ الطاهر بن عاشور حياته وآثاره للدكتور بلقاسم الغالي ص: 195

44 زغل العلم للإمام الذهبي ص: 40

45 في تدريس وتعليم الكفايات. د التوفيق التضمين. ص: 34

46 من قضايا التربية الدينية في المجتمع الإسلامي كمال الدين عبد الغني المرسي ص180

47 قضايا التربية والتكوين بين التشخيص والتقويم للدكتور محمد عزيز الوكيلي ص: 98.

48 الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره. تأليف أ. د. بلقاسم الغالي ص: 65

49 أليس الصبح بقريب ص: 142

50 مقدمة ابن خلدون ص495.

51 أدب الدنيا والدين للماوردي. ص: 37

52 نفسه ص: 38

53 عودة الحجاب: محمد أحمد إسماعيل المقدم 2 / 27

54 الموافقات للإمام الشاطبي 12/1 . 13

55 اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي. ص: 18.

56 قضايا التربية والتكوين بين التشخيص والتقويم للدكتور محمد عزيز الوكيلي. قام بمراجعته الدكتور عبد الكريم غريب . ص: 89.

57 أي تعليم لمغرب الغد؟ منشورات مجلة علوم التربية . 1 . ص:41

58 آداب الدنيا والدين. الماوردي ص: 48

59 إشكالية المصطلح في التراث النقدي العربي للدكتور يوسف الفهري ص: 18 . 19

60 دراسات مصطلحية للشاهد البوشيخي ص:92

61 أليس الصبح بقريب ص: 163

62 عرفه بقوله هو: شرح مراد الله تعالى من القران ليفهمه من لم يصل ذوقه وإدراكه إلى فهم دقائق العربية وليعتاد بممارسة ذلك فهم كلام العرب وأساليبهم من تلقاء نفسه. أليس الصبح بقريب ص: 164

63 الكشاف للزمخشري. مقدمة الكتاب ص 2

64 المراد به حفظ ما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول وعمل وما نقل عن أصحابه من سننه وسننهم الراجعة إلى التأسي به. وربما أطلق إطلاقا أعم على ما يضم فنونا خمسة وهي: متن الحديث، ومصطلحه، وصفات النبي صلى الله عليه وسلم، ودلائل نبوته وسيرته وغزواته. أليس الصبح بقريب ص: 169 . 1170

65 المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء أفريقيا والأندلس والمغرب. للونشريسي 11 /142.

66 التعريفات للشريف الجرجاني ص108

67 المنثور في ا لقواعد للزركشي ص:15

68 إحياء علوم الدين للغزالي ج1 ص:44

69 تعريفه: (هو ضبط القواعد التي يستطيع العالم بها فهم أدلة الشريعة ليأخذ منها الأحكام التفريعية أليس الصبح بقريب ص 180

70 الموافقات للإمام الشاطبي 43/1

71 يراد به العلم الذي يعرف به إثبات العقائد الإسلامية بإثبات الحجج ودفع الشبه

72 الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور حياته وآثاره تأليف بلقاسم الغالي ص210

73 أليس الصبح بقريب ص 190

74 نفسه ص: 202

75 نفسه. ص: 203

76 عرف طريقة الإلقاء بقوله (وهي إملاء المدرس من نقله ذلك الدرس مرتبا ...وهي جميلة الصورة تعود سعة الحافظة وقوة التعبير عن المراد. أليس الصبح بقريب. ص: 205

77 الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره للدكتور بلقاسم الغالي ص:66

78 في تدريس وتعلم الكفايات مقاربات ديداكتيكية نماذج تطبيقية. للدكتور التوفيق التضمين. ص: 158

79 يقصد بإعداد المعلم ذلك النشاط الذي تقوم به المؤسسة التربوية المتخصصة قبل الخدمة. ويتمثل في تدريبه على تعلم وإتقان مهنة التعليم ليكون قادرا على ممارسة هذه المهنة. انظر التربية الإسلامية أصولها ومنهجها ومعلمها" عاطف السيد. ص: 132

80 أليس الصبح بقريب. ص205

81 نفسه ص 206 بتصرف يسير.

82 أخلاق العلماء للآجري ص:64

83 مواهب المنان بما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان. تأليف السلطان سيدي محمد بن عبد الله العلوي .ص: 29.

84 أدأب الدنيا والدين الماوردي 40

85 رجل من أهل الجنة لفضيلة الشيخ محمود المصري. ص: 10

86 أليس الصبح بقريب ص: 206

87 آداب الدنيا والدين. الماوردي. ص: 47

88 أليس الصبح بقريب 208